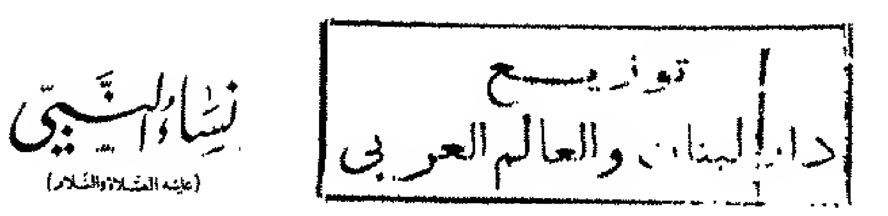


نساء النبي
دكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ


توزيع
دار لبنان والعالم العربي
نساء النبي
(عليه الصلاة والسلام)

نساء النبي

(عليه الصلاة والسلام)

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

أستاذ الدراسات القرآنية العليا
بجامعة القرويين - المغرب

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

طبعة مزيدة منقحة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

الى رائدنا ، مجدد الفكر الاسلامي

الاستاذ امين الخولي

في قلوبنا ، وضمائرنا ، وعقولنا .

عائشة عبد الرحمن

تمهيد

باسم الله أقدم هذه الطبعة الجديدة من كتاب (نساء النبي) رضي الله عنهن ، بعد أن نفدت منه اثنتا عشرة طبعة ، لدور: الهلال والمعارف بالقاهرة ، والكتاب العربي ببيروت ، ليأخذ مكانه في سلسلة تراجم لسيدات بيت النبوة رضي الله عنهن ، التي لقيت من تقدير القراء وإقبالهم ما جعل طبعاتها تتوالى تباعا .

وإذا كان رواج هذا الصنف من الدراسات في تاريخنا الإسلامي ، لافتا إلى حاجة الحياة إليها ، ومصححا ما شاع فينا من أن القراء عندنا لا يطلبون من الزاد الفكري والوجداني إلا الرخيص التافه أو المسف المبتذل الإعلاني ، فإنه في الوقت نفسه ، يؤكد أن الوجدان القومي لأمتنا العريقة لم يفقد وعيه في دوامة الضجيج للبضاعة الأجنبية الغازية ، بل ما يزال يطلب زاده من نبعنا الأصيل الحر... ولست أمنُّ على قراء هذه التراجم ، أن بذلت لها ما استطعت من جهد مخلص... بل هم الذين يمنون عليَّ أن منحوني كل تشجيع ومؤازرة ، فقد كان حسن استقبالهم لهذه الدراسات الجديدة في البيت النبوي ، مددا لي : يعينني على مواصلة الدرس ، ويزودني بطاقة على احتمال أعبائه وتكاليفه ، في ظروف قاسية صعبة .

ولا بد لي من أن أشير إلى رغبة كريمة ، أبداها بعض السادة القراء ، ممن يؤثرون أن نطوي بعض أخبار عن حياة الرسول الخاصة ، تعلقت بها شبهات أعداء الاسلام :

غير أني في الحق ، ألفيت أن طي هذه الأخبار ، لا تقره أمانة البحث ، ولا هو من هدي القرآن الكريم الذي حرص على أن يسجل منها ما يؤكد بشرية الرسول ، كي

يعصمنا مما تورط فيه غيرنا، حين جردوا رسلَهم من بشريتهم، وأضفوا عليهم من صفات الألوهية ما يشوب عقيدة التوحيد التي هي جوهر الدين كله.

وما كان لي أن أطوي ما لم يطوه الله تعالى، عن بيت نبينا ﷺ، في آيات نتعبد بها ونتلوها قياما وقعودا وعلى جنوبنا، فلم يعد يحل لدارس مسلم أن يضرب الصفح عن ذكرها، فيما يتناول من حياة النبي ﷺ، وقد نزل بها الوحي في سورٍ وآيات محكمات.

وأنا بعد لا أرى في هذه المواقف، إلا آية عظمة في نبينا الذي استطاع وهو بشر مثلنا، أن يضطلع بآخر رسالات السماء، وأن ينقل بها الإنسانية إلى مرحلة الرشد، ويحررها من ضلال الوثنية وشوائب الشرك، ويقودها على مراقي طموحها إلى تحقيق وجودها الأسمى...

آية البطولة في محمد بن عبد الله ﷺ، انه استطاع وهو بشر مثلنا أن يدخل التاريخ كما لم يدخله سواه، وأن يوجه سيره على امتداد الزمان والمكان منذ اصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام.

* * *

أريد لأقول:

إنني في كل ما تناولت من حياة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لم أر في شيء منه قط، ما أتحرج من تعريضه لضوء البحث الأمين، وقد كان مرجعي فيها جميعا، القرآن الكريم والحديث الشريف، ومصادر إسلامية في السيرة والتاريخ، لا يرقى اليها أي شك في حسن المقصد وصحة الايمان...

ومنه تعالى ألتمس الهدى والتوفيق، سبحانه: عليه توكلت واليه أنيب.

مصر الجديدة

عائشة عبد الرحمن
بنت الشاطئ

مقدمة

هذا حديث عن حياة سيدنا محمد ﷺ في بيته، أعرضه في صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتي أظلهن هذا البيت، وكان، لكل منهن أثرها في حياة زوجهن المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكانها في تاريخه العظيم وسيرته الخالدة.

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث، حتى قرأت ما في مكتبتنا مصادر ومراجع لهذا الجانب من حياة الرسول ﷺ، في بيته. مبتدئة بالقرآن الكريم، والحديث وكتب السيرة، والتفسير، ثم التراجم والتاريخ. وطالعت ما في خزانتي من كتب للمستشرقين في هذا الموضوع.

على أني حين بدأت أكتب، خليت هذا الحشد من المؤلفات إلى جانبي أرجع إليه كلما دعت حاجة أو ضرورة، وتركت قلمي يصور حياة أمهات المؤمنين في بيت النبي ﷺ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذي قرأت...

وأعترف بأني شعرت بتهيب حين فرغت من القراءة، هممت معه بالتراجع عن الكتابة في هذا الموضوع، وذلك لما ملأني من احساس بجلاله ودقته من ناحية، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى:

فهؤلاء السيدات اللواتي عشن في بيت النبوة، ينزعن جميعا الى حواء، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء، وتزوجن من بشر يتلقى الوحي من أعلى، ويبلغ رسالة الله عز وجل، فأنّى لقلم أن يصور حياة كهذه، تموج فيها اهواء البشرية في فيض من النور الأسنى، وتتجاذب فيها الأنوثة - التي نعرف

رقتها وضعفها ورهافة وجدانها – تيارات بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها الى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى الى السماوات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية انسانية !

غير أني عدت فرأيتها حياة حافلة مثيرة ، تغري بالدرس والتأمل ، وتجربة فذة ليس من السهل أن أنصرف عنها بعد أن اتجهت اليها .

* * *

وإذ صح مني العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، فما كانت هذه الكثرة لتحول دون تناول جديد له ، وبخاصة إذ ذكرت أن أغلب الذين كتبوا قبلي عن حياة النبي ﷺ في بيته ، مالوا عن الحق ، فمنهم من زين له الإيمان والاجلال أن ينزه الرسول عن بشريته التي فطره الله عليها ، وقررها القرآن والسنة أصلا من أصول العقيدة الإسلامية ، ومنهم من أضله التعصب وأعماه الحقد ، فجعل من هذا الجانب في حياة نبينا العظيم ، ما يشفي غله وينفس عن حقده .

ومن هنا بقي في الموضوع مجال لتناول جديد ، يتمثل حياة نساء النبي في البيت الكريم على هَدي دين الفطرة ، وبايحاء البيئة وأملاء التاريخ ، وفي نزاهة مؤمنة ، ودراسة محققة ...

وسيرى القارئ أني اقتصرت في هذا الكتاب على الأزواج اللائي شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية القبطية المصرية » التي كان لها الى جانب حُظوتها عند المصطفى ﷺ وشرف أمومتها لابنه ابراهيم ، أثر واضح في الحياة الخاصة لمحمد ﷺ . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائي تزوجهن ولم يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات في عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى كتب السيرة النبوية وطبقات الصحابة وتاريخ عصر المبعث ...

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ، ولا اللواتي عرضن عليه أن يتزوجهن ، ولم يتم الزواج .

ولست أجهل أنه قد كان لهؤلاء السيدات أثر في حياته ﷺ ، العاطفية والزوجية ، غير أن التاريخ المروي ، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا في بيته ، ومن ثم جاز لي أن أدعهن كي أفرغ للحديث عن أولئك اللائي دخلن حياته ﷺ ، مركزة جهدي في تصوير شخصياتهن كما بدت في البيت المحمدي ، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن اليه الا على سبيل التمهيد ، ولم أتتبع حياتهن بعده ﷺ ، إلا أن تكون إشارة موجزة يدعو إليها المقام .

ذلك لأنني لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبي جمعا لمًّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدي المألوف في تراجم الأشخاص ، وإنما عناني تمثل حياة كل منهن في بيت المصطفى ﷺ ، ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجاً وأنثى ، ولا على القارئ بعد هذا أن يلتمس هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخي لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها بعد زوجها ، بل فليلتمسه في غير هذا الكتاب اذا شاء ، وحسبه مني أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضيء تاريخها كله .

وأود بعد هذا كله أن يطمئن القارئ إلى أنني تحريت جهدي في مادة الكتاب أصالة المصادر ، ثم كان لي بعد ذلك ، منهجي في التناول وأسلوبي في الأداء ونسق العرض .

وعسى أن أكون قد وُفقت إلى قريب مما حاولت من تقديم الحياة الزوجية في بيته ﷺ ، بما ينبغي لي من محض التقوى والإخلاص ، وصدق التقدير لجلال الموضوع وأمانة الكلمة .

« وعلى الله قصد السبيل » صدق الله العظيم .

المبحث الأول



«قلْ سبحانَ ربي هَلْ
كنتُ إلاَّ بشراً رسولاً»
صدق الله العظيم

البيت والزوج

الحديث عن «نساء النبي» ﷺ في بيته ، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج ، وبيته الذي أظلّهن . لا أعني به بنيانه وموضعه ، بقدر ما أعني الحياة المشتركة فيه . وأما البيت بمعنى البنيان ، فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا ، بل بيتين : أولها في «مكة» حيث عاش «محمد» ﷺ ، مع زوجه الأولى وحدها ، وحيث أنجب ، وواجه التحول الأعظم في حياته وفي حياة العرب والإنسانية جميعا . وقد وصفتُ هذا البيت في كتابي عن «بنات النبي» ﷺ [1] ومن ثم أعفي نفسي وأعفي قرائي من التزيد بتكرار ذلك الوصف . البيت الآخر كان في «المدينة» حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضي الله عنهن ، فيجد القراء وصفه موجزا في الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضيْ الله عنها من هذا الكتاب ، إذ كانت أولاهنّ مكانا فيه ، ومن بعدها جاءت نساء النبي تباعا ، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعي وسياسي وتشريعي لم يُلحظ في البيت الأول الذي دخله محمد — ﷺ — شابا في الخامسة والعشرين من عمره ، لم يُبعث بعد برسالة ، ولم يتلق الوحي .

* * *

وفي الحديث عن رب هذا البيت الذي أظلهن ، لا أقدم هنا تتبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأمجادها الخالدة ومواقفها المشهودة ، وإنما أقف من هذا كله عند جانب

(١) ظهرت منه خمس طبعات لدار الهلال بالقاهرة . وثلاث لدار الكتاب العربي في بيروت .
كما طبع في المجلد الجامع لـ(تراجم سيدات بيت النبوة) رضي الله عنهن ، نشر دار الكتاب العربي ببيروت .

بعينه لا ينبغي أن أتجاوزه إلى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، النبي الإنسان الذي أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعهن دنياه الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة في حياته الوجدانية ثم في حياته العملية .

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا ، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا ، جد عسير ، وليس الأمر كذلك في حياة نبي آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعاً آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم» (١) ، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلا من أصول عقيدته . ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر : عبد الله ورسوله .

ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة ، فهو كما قال جل جلاله : «قل إنما أنا بشر مثلكم» (٢) : يسكن إلى زوجه ، ويشغل بالأبناء ، ويعاني مثل الذي يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجري عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

«وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟» (٣) .

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حرّ الثكل في بنيه ، وفداحة المصاب في خديجة ، ومحنة الإفك في عائشة . ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

«قل لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب

(١) من آيات : يوسف ١٠٩ ، والنحل ٤٣ ، والانبياء ٧ .

(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦ .

(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران .

لاستكثرتُ من الخير وما مسَّني السوءُ ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»[1] .

وإنه لغاية التكريم للبشرية ، أن ينتمي إليها النبي الرسول ، ومن قبل كرمها الله ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبي البشر.

* * *

ولكن محمداً ﷺ ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر ، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا ، خاتما للنبيين ، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا ... إنه بشر رسول ، وهذا هو موضع الدقة والعسر في الحديث عن «الرجل» في حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد ، أنه قد كان النبي المصطفى ، وأن كلمة الإسلام الأولى هي الشهادة بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

ويزيد في دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أي رجل من البشر ، وإنما كان -- عليه الصلاة والسلام -- يتلقى من حين الى حين أوامر ربه في أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوي صريح :

فمحنة الإفك مثلا ، لم يحسمها الا نزول الوحي ببراءة «عائشة» مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة.

وزواجه ﷺ من «زينب بنت جحش» ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذي كره لمحمد أن يخفي في نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

---

(١) آية ١٨٧ من سورة الأعراف.

وطلاق الرسول ﷺ لزوجه السيدة حفصة ، خيف من وطأته على أبيها «عمر» رضي الله عنه ، فنزل أمين الوحي على النبي ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة ، رحمةً بعمر.

وضيق نساء النبي ﷺ ، بما فرض عليهن من حياة خشنة ، نزل فيه قوله تعالى في سورة الأحزاب :

«يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» ٢٨ – ٢٩.

وسلوك نسائه ، ﷺ ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة ، قال تعالى في سورة الأحزاب :

«يا نساء النبي لستنَّ كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا . وقَرْنَ في بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ تبرجَ الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيتِ ويُطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ، إن الله كان لطيفا خبيرا» ٣٢ – ٣٤.

وبعض هذا يكفي لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبي .

فأي رجل كان نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام؟

وأي زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، أختلفت أنماطهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن ؟..

قد نستطيع – بشيء من الجهد – أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، في الشاب الهاشمي الذي صحب عميه أبا طالب ، وحمزة ، الى دار خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها في العام الخامس عشر قبل المبعث ...

لقد كان اذ ذاك بشرا غير رسول ، وان يكن المهيأ ليبعث بالرسالة...

كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ، أبوه «عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم» ، الذي وعت «مكة» قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه [١] ، وهي قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول «اسماعيل بن ابراهيم» جد العرب العدنانية.

وأمه «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي» أفضل امرأة في قريش نسبا وموضعا [٢].

وقد أمضى أعوامه الأولى في بادية بني سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص في شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان [٣] كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسؤولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وَزَوَّدَتْه بَعضَ خبرةٍ بالدنيا والناس ، فكان – في إبان شبابه – الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح في شخصيته آثار البادية ، وفي سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم : مثابة الحجاج ، ومسكن قبيلة تتولى النقل التجاري بين الأطراف المتحضرة في الجزيرة ، كما تلمح في عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفي خلقه شمائل هاشمي قرشي ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يُصِبْه الترفُ بآفات النعومة واللين.

هكذا كان «محمد» حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم

---

(١) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام ١/١٦٠ ، ط الحلبي وانظر مبحث الفداء بتفصيل ، في كتاب (أم النبي) عليه الصلاة والسلام.

(٢) السيرة ١/١٦٥ ، عيون الأثر ١/٢٤.

(٣) لم يفتني هنا ان العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوح الإسلامية ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التي عرفت الاختلاط قبل الاسلام ، بحكم مركزها الديني والتجاري : فإليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف الى اليمن والشام.

عن جده واستقامته ، وصدقه وأمانته وعفته ، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذي كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها : «شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللوم ، ربعة في الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالي العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء اذا تكلم أو ابتسم» [1] .

«وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه الى الأمام ، ويحسن الاصغاء ملتفتا الى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فاذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، من أثر الغضب» [2] .

ولم تكن السيدة خديجة اذ ذاك بالفتاة الغريرة ، بل كانت السيدة الناضجة المجربة التي بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون في مالها الى الشام ، وان في اعجاب مثلها «بمحمد» وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت في شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده في أي رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها ، ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالي ، لا النبي المنتظر.

وقد عاشرته هذه السيدة الناضجة المجربة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وانها لأعوام طويلة تكفي لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدي من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس . ثم لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحي الأول ، حتى هتفت في حرارة ولهفة ويقين :

---

(١) تاريخ الطبري : ١٨٥/٣ - وانظر معه كتاب الفضائل من ، صحيح مسلم : باب صفته ﷺ (١٨١٨/٤) وعيون الأثر ١٨٨/١ .

(٢) من وصف الامام علي كرم الله وجهه للنبي عليه الصلاة والسلام : تاريخ الطبري : ١٨٥/٣ ، ١٨٦ وانظر: صحيح مسلم ، من كتاب فضائله ﷺ (١٨٠٤/٤ - ١٨١٢)

« ... والله ما يخزيك الله أبدا ... انك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1]

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وان فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصية محمد الرجل السيد ، قبل أن يبعث نبيا رسولا . ومن وصف « علي بن أبي طالب » — كرم الله وجهه — لابن عمه الذي عاش معه طويلا في بيت أبي طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج من السيدة خديجة ، قال :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ... »[2] .

ومعه ، حديث لأم معبد الخزاعية « عاتكة بنت خالد » ، قالت تصفه ﷺ ، وقد رأته في هجرته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ... وسيم قسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف ، وفي عنقه سطع ، وفي صوته صحل ، وفي لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، ان صمت فعليه الوقار ، وان تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ... ربعة ، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر ... له رفقاء يحفون به ، ان قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ... »[3] .

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبي جميعا بأنها وحدها التي عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ . ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتها الزوجية نلتمس فيها

---

(١) الحديث ، رواه مسلم في الصحيح . والسيرة ٢٥٣/١ ، وعيون الأثر ٨٣/١ .

(٢) وانظر كتاب المناقب في صحيح البخاري ، وكتاب الفضائل في صحيح مسلم .

(٣) الاستيعاب ١٩٥٩/٤ ، وعيون الأثر ١٨٨/١ ، ٣٢٣/٢ .

شخصية الرجل الزوج، فإذا تركناها إلى الزوجات الأخريات اللواتي جئن بيت النبي بعدها، شق علينا تمثل حياتهن هناك، فما من امرأة منهن دخلت حياة «محمد ﷺ» إلا رأت فيه الزوج والنبي معا.

والذي نطمئن إليه، هو أن الزوجة منهن كانت تأتي بيت الرسول عليه الصلاة والسلام، معتزة بشرف الزواج من النبي المصطفى، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من زوجات يشاركنها في رجلها، حتى ترى فيه – ﷺ – الزوج والنبي. ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة، والغيرة التي تحتدم حتى تجاوز المدى، وما يكون شيء من هذا في حياة نساء يرين في زوجهن نبيا فحسب!

وحياة «محمد ﷺ» في بيته، تبدو رائعة في بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان [1]، ولم يحاول – إلا في حالات الضرورة القصوى – أن يفرض على نسائه شخصية النبي لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجداني، ولا الجمود العاطفي، وما ذاك الا لأنه ﷺ كان سَوِيَّ الفطرة، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف.

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات، بأنهن كن دائما في حياة الرسول البطل، يصحبنه حين يخرج في معاركه ومغازيه، ويهيئن له ما يرضي بشريته، ويغذي قلبه، ويمتع وجدانه، ويجدد نشاطه، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الباهظ، واحتمال ما لقي في سبيل دعوته الخالدة.

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش، فتيَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين، حي الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه في حجر أحب نسائه

---

(١) في كتاب السمط الثمين للمحب الطبري، حديث طويل عن رعايته ﷺ لزوجاته، وسمره معهن، وصبره عليهن: ص ٨: ١١.

إليه وأحظاهن عنده.

فليغفر الله لمن حملهم إيمانهم على أن يجحدوا آية الله العظمى في ابن امرأة من قريش تأكل القديد...

وليغفر الله لمن زعموا أن نبيه عليه الصلاة والسلام، لم يخفق قلبه بحب «عائشة»، ولا أحس ميلا نحو «زينب بنت جحش»، ولا كان لعاطفته دخل في زواجه من نسائه!

ويأبى الله ورسوله، وتأبى هذه الفطرة السوية التي عرفتها الإنسانية في «محمد» واعترت بها، وتأبى السيرة النبوية التي تنفي عن الحياة في البيت المحمدي، ظلال الجفاف والجمود.

في بيت الزوجية، مع الضرائر

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين في حياة النبي مع نسائه، وأعني بهما تعدد الزوجات، وحياة الضرائر...

وقد قال المستشرقون في أولاهما ما قالوا، ولم يروا في هذا الجمع بين عدد من النساء، لزوج واحد، سوى مظهر مادية مسرفة. وانه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل، وانحراف عن المنهج العلمي الذي يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضَرَّت بالمرأة والأسرة والمجتمع، من حيث يُظن بها أنها مصلحة منصفة.

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعي ان نظام الزوجة الواحدة، يُتَّبع في دقة وينفذ نصا وروحا، ومع هذا يأتي بعض أبنائه فينكرون في جرأة، تعدد الزوجات، في بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التي لا تعرف سواه إلا في حالات قليلة ولدواعٍ خاصة. ولم يكن هذا النظام اختياريا، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان، في مجتمع البنون فيه زينة الحياة، وفخر المرأة الإنجاب، وفخر الرجال الولد وعزة النفر.

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال. ولكنه في الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد، وهو هذا الرق العصري الذي يعترف لزوجة واحدة بشرعية الزواج ويدع لغيرها - ممن يعاشرهن الزوج في الحرام - الضياع والهوان والعار ويرهق الإنسانية بموردٍ لا ينقطع من أولاد الحرام، المنبوذين اللقطاء.

والإسلام قيد التعدد شرعا بأربع. ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم، ولهن أن يتزوجن من بعدهم.

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلَّهن للنبي عليه الصلاة والسلام:

«ذلك أدنى أن تَقَرَّ أعينُهن ولا يحزَنَّ ويرضين بما آتيتهن كلُّهن ... وكان الله عليماً حليما»

الأحزاب — ٥١

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين، من الزواج من أمهاتهم، نساء النبي ﷺ:

«وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما».

الأحزاب ٥٣

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهم، فيما هو من المعروف والمستطاع. مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق ولو حرصنا. وقد كان ﷺ أحرص الناس على العدل بين نسائه، قدوة للمسلمين ومعلما وإماما، إلا فيما لم يكن تملكه بشريته من المساواة بينهن في العاطفة والقلب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم هذا قسَمي فيما أملك، فلا تلُمني فيما لا أملك».

* * *

وفي مسألة التعدد، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن هاجموه. ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء، وقد تؤثر أنثى - راضية أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل، على أن يكون لها غيره كاملا.

وليس معنى هذا أن نساء النبي كن سعيدات بحياة الضرائر، ولا هو يقتضي أن تستريح احداهن، إلى هذه المشاركة في الزوج، ولكن معناه على التحديد أن «محمدا» ﷺ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال، الذي تؤثر الزوجة أن يكون لها أي مكان في بيته، على أن تكون لها مع غيره، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة ...

وليس من بين أزواجه – ﷺ – من دخلت بيته وفي حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن «خولة بنت حكيم» اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبي بكر وسودة بنت زمعة في وقت واحد ، وأن «أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث» طمحت إلى الزواج منه ، ﷺ – وفي رواية أنها وهبته نفسها – وفي بيته عشر نساء : ثماني أزواج واثنتان ملك يمينه ، وان عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبي بكر وعنده «أم رومان» حماة النبي ﷺ وأن علي بن أبي طالب همَّ بأن يتزوج على «فاطمة الزهراء» وأن أبا بكر وعمر ، صهري النبي ﷺ رغبا في الزواج من «أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب» حين مات زوجها ، وفي بيت كل منهما أكثر من زوجة [1] ...

ولو خُيرت نساء النبي ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة في بيت واحد ، مع زوج واحد ، وحياة أخرى منفردة في غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا ...

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد البيت المحمدي من غيرة نسائه المحتدمة ، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به ...

فإن يكن ، ﷺ عانى من ذلك كثيرا ، فلقد راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التي كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار ، وحسبُنا كلمته في زوجه «عائشة» حين لجت بها غيرتها الجامحة :

«ويحها ، لو استطاعت ما فعلت !»

شاهداً على سلامة الفطرة ، وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد

---

(١) يأتي بيان ذلك ، مع مراجعه ، في مواضعه من مباحث الكتاب .

كانت نساؤه يعرفن هذا فيه ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى في ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد في فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء.

وسيأتي في مبحث «السيدة حفصة بنت عمر» موقف أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبي ﷺ ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان...

ذلك أن عمر والصحابة رضي الله عنهم ، كانوا يرون في «محمد» النبي المصطفى ، أما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا. وهو ﷺ ، راضٍ بهذا مقر له ، غير ضجرٍ به ولا كاره...

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبي ﷺ من خصام وخلاف ، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين...

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التي اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة ، لم يكره ﷺ أن يقف في ساعات فراغه من معركته الكبرى في سبيل الدين الحق ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضي الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج. وما حاول — ﷺ — أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة في الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه ﷺ ، وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له غِرْنَ من جمالها ، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبي ﷺ ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها الرسول قبل أن يدخل بها ،

وقال عن نسائه :

«إنهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »[1]

* * *

وهذه صورة من حياة زوجاته رضي الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارئ شخصية هذا الرجل الفذ الذي آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن في حياته قائدا وزعيما.

---

(١) بتفصيل ، في الفصل الخاص بعائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها.

المبحث الثاني

أُمهاتُ المؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عنهنّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدي ومعهن «مارية القبطية»
أم ابراهيم عليه السلام

(١)

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

أم المؤمنين الأولى

... والله ما أبدلني خيراً منها : آمنتْ بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء .

محمد رسول الله ﷺ

(أخرجه ابن عبد البر
في ترجمتها بالاستيعاب)

ذكرى اليتمة

أينع صباه واكتمل شبابه ، في بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعمَ الحياة في مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة .

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده إلى لحظةٍ طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه في بقعة موحشة من الصحراء بين «مكة ويثرب» ، أمام أمه «آمنة» والحياة تتسرب من جسدها رويدا ، ثم تنطفئ إلى الأبد ...

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين ، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التي ألقوا فيها جثمان الغالية «بالأبواء» ، ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لا يملك أن يستبقي أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام ، بعد أن هالوا عليها الرمال .

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعي الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذي غال أعزَّ من له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مستثارَ الحزن ، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد ، في طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية في جوف الصحراء ، ثم ينثني مثقلا بالأسى والشجن .

وما أكثر ما كان يمر في مكة بالبيت المهجور الذي ضمّه وأُمّه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وخلا !..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعي خارج مكة ، فإذا حان المساء وآن له أن يئوب إلى منزله ، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب ، وحيدا محزونا مضاعَف اليتم ، يتبع جاريته «بركة» وانيَ الخطو صامتا واجما ، وهي تسعى به إلى بيت جده الشيخ «عبد المطلب» .

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التي تروع صباه.

كم جاهد – عامين كاملين – ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامي في قلب حفيده الصغير العزيز!

لكن الزائر المرهوب الذي ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه، عاد من جديد فطوّف بحيٍّ بني هاشم، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب، وينذر بالرحيل.

ووقف الغلام مرة ثانية، يرقب الحياة وهي تنطفئ فيمن كان له أبا بعد أبيه...

وأصغى في حزن ذاهل إلى صوت الشيخ المحتضر، وهو يدنو إليه ولده «أبا طالب» فيوصيه بمحمد، ابن أخيه «عبد الله».

ثم يمضي...

وانتقل الصبي من بعده إلى منزل جديد، وألفى لدى عمه أبا ثالثا، لكنه ظل يفتقد الأم.

وبقي قلبه على الأيام والشهور والسنين، ينزع نحو مرقدها الأخير في «الأبواء»...

ولم يستطع ضجيج صبية بني هاشم في ملاعب حداثتهم، أن يمحو من مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التي صَكّتْ أذنيه وقلبه في جوف البيداء.

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول «البيت العتيق» في «أم القرى» أن تطوي في متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها، قرب «الأبواء»[1].

* * *

(١) بتفصيل في كتابنا (أم النبي) ﷺ.

وهذا هو يقف في المساء الساجي عند مدخل مكة شارد البال ، والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلَس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمتُ العميق شجنا و إعياء .

وتتكاثف الظلمة من حوله ، فيجمع نفسه في جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه ، وفي نفسه إحساس مرهف بفراقٍ وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذي آواه سبعة عشر عاماً ، وحسبُ العمِّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار...

ولكن إلى أين؟...

إلى «الشام» مؤقتا كما أراد له عمُّه في صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه في مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير، وقال له فيما قال :

«يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا وألحَّتْ علينا سِنونَ منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضَّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود...

«وقد بلغني أنها استأجرتْ فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته ، فهل لك في أن أكلمها؟» [1] .

قال «محمد» :

— ما أحببتَ يا عم...

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل؟

إذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوي في ضمير الغيب .

---

(١) هذه رواية الزرقاني عن الواقدي . وابن سيد الناس في (عيون الأثر ٥٧/١) والذي في سيرة ابن هشام ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبري ص ١٣ طبعة حلب وتاريخ الطبري ، ١٩٦/٢ ، أن السيدة خديجة هي التي عرضت عليه ، مباشرة ، أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرا .

لقـــاء

القافلة تغذ السير نحو «أم القرى» عائدة من رحلة الصيف الى الشام ، والحداة يهزجون بأغانيهم التي تعد الابل بالراحة والظل والري ، وتمني الركب بالأُنس في لقاء الأهل والأحباب .

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا «مر الظهران» على مقربة من «مكة» واشرأبت أعناقهم الى معالمها التي لاحت لهم من بعيد ، تناديهم في لهفة واشتياق . . .

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التي هاجها مرور القافلة قريبا من «الأبواء» في طريق عودتها الى «مكة» .

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع الى «أم القرى» أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة ، التي اختارته ليخرج في مالها إلى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطي غيره ممن استأجرتهم قبله . . .

وقال التابع «ميسرة» :

«أسرع أنا إلى سيدتي فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فإنها تعرف ذلك لك» .

فتركه «محمد» يمضي وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحُداة يمنون الركب بالأنس في لقاء العشيرة والأحباب ؟ ! . . .

وكَرَّ بصرُه راجعا إلى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه «آمنة» ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء .

وتذكر رحلته الأولى ، في السادسة من عمره ، عائدا من «يثرب» بغير أم!

* * *

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التي أناخت على ثرى «مكة» مطمئنة ، فمضى «محمد» على بعيره قاصدا دار «خديجة» بعد أن طاف بالبيت العتيق...

وكانت «خديجة» هنالك في دارها ، ترقب الطريق من علية لها في لهفة مشوبة بشيء من القلق ، وإلى جانبها غلامها «ميسرة» يملأ سمعَها بحديث مثير عن رحلته مع «محمد» (١).

وإذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، عَجِلتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، في صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا.

ورفع اليها وجهه شاكرا ، فما تلاقت الأعين حتى عاد فخفض بصره ، ومضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام...

وأنصتت إليه شبه مأخوذة ، حتى اذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هي ، تتبعه عيناها إلى أن توارى في منعطف الطريق.

واتجه هو الى منزل عمه «أبي طالب» وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسسه أذى من يهود...

---

(١) انظره في : السيرة ١/٢٠٠ ، والمحبَّر لابن حبيب ٧٧ ، وتاريخ الطبري ٣/١٩٦ والإصابة ٤/٦٠ ، والسمط الثمين ١٣ ، وعيون الأثر ١/٤٨.

زواج سعيد

وسارت الحياة في «مكة» على وتيرتها أياما، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل، محفوف بالأخطار...

وصُفِّيَ حساب القافلة أو كاد، وانقطع ما بين التجار والأُجَراء إلى حين، اللهم الا ما كان بين السيدة «خديجة» و«محمد» الصادق الأمين...

لقد بلت «خديجة» الدنيا وعرفت الرجال، وتزوجت مرتين، باثنين من سادات العرب وأشرافهم: عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، وأبي هالة هند بن زرارة التميمي [1]، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان، فما رأت فيمن عرفت، ذلك النمط الفريد من الرجال.

واستغرقت في تفكيرها، تستعيد صوته الفريد المميز، وهو يحدثها عن رحلته، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء الفتوة والجلال.

وفجأة، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذي التقت فيه بالشاب الهاشمي، فهزها شعور مباغت، خفق له قلبها:

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد؟..

ترى هل مسَّه الحب فاستيقظ بعد ما طال به الهجوع وطاب له الرقاد؟

---

(١) هذه رواية السيرة (١٩٣/٤) وتاريخ الطبري (١٧٥/٣) والمحبر ٧٩، والسمط الثمين (١٣) وعيون الأثر ٥١/١ ومعها رواية أخرى في الاستيعاب: أن السيدة خديجة تزوجت أبا هالة، ثم عتيق بن عائذ (١٨١٧/٤) وانظر ترجمة عتيق وأبي هالة في جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ١٣٣، ١٩٩ ط أولى ذخائر العرب.

وإذ تلقت جواب القلب ، انتفضت مذعورة لا تدري كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت — في حساب بيئتها — من حياة الرجال؟

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطَّاب من سادة قريش وسراة مكة؟ (١)

ولكن ويحها! لقد فكرت في قومها ، دون أن تعرف رأي «محمد» فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة في الأربعين من عمرها وهو الذي انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بني هاشم الناضرات؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هي في كهولتها بالقياس إلى «محمد» في شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت «آمنة بنت وهب» لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين!... وهي بعد ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومي ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمي ، ولدها «هنداً» غلاما لم يشب عن الطوق (٢)

فأي طائل وراء هذه العاطفة التي تبدو يائسة عقيما؟

وفي غمرة حيرتها واضطرابها ، زارتها صديقتها «نفيسة بنت مُنية» فلم يغب عنها الذي تجد صاحبتها ، فما زالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوي...

وهوَّنت «نفيسة» الأمر عليها ، فما في نساء قريش من تفوقها نسبا وشرفا ، وهي بعدُ ذات غنى وجمال ، كلُّ قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه (٣) .

---

(١) السيرة : ١/٢٠١ — والسمط الثمين ١٣ .

(٢) انظر ترجمة أم محمد بنت عتيق في جمهرة الأنساب (١٣٣) وانظر ترجمة هند بن أبي هالة ، ربيب رسول الله ﷺ في الاستيعاب (١٥٤٥/٤) وفي الجمهرة (١٩٩).

(٣) السيرة : ١/٢٠١

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا...

* * *

جاءت [1] «محمدا» فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان؟.. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا في السادسة من عمره، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته:

– ما بيدي ما أتزوج به...

قالت على الفور:

– فإن دُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعني:

تلك «خديجة» ورب الكعبة، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة؟..

ألا لو دعتْه لأجاب، ولكن هل تدعوه؟

وانصرفت «نفيسة» وتركته مشغول البال، يرنو في رقة إلى طيفٍ من خديجة، وقد تراءت له في وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير، تشع لطفا وبهاء وحنوا...

وأشفق أن تبعد به أمانيه، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها، فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه، وانطلق يسعى نحو الكعبة، فإذا كاهنة تلقاه في طريقه فتستوقفه سائلة:

– جئتَ خاطبا يا محمد؟

---

(١) كذا في شرح المواهب والإصابة في ترجمتي خديجة، ونفيسة. والذي في سيرة ابن هشام أن السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة. وروى المحب الطبري في السمط، انها بعثت الى محمد، ﷺ، ولم يذكر اسم من بعثته – وانظر تاريخ الطبري ١٩٧/٢ والروايتان في (عيون الأثر ٤٩/١).

أجاب غير كاذب : كلا

فتأمله برهة ثم هزتْ رأسها وهي تقول :

— ولِم ؟.. فوالله ما في قريش امرأةٌ ، وإن كانت خديجة ، لا تراك كفئا لها [1] .

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة «خديجة» فسارع اليها ملبيا وفي صحبته عماه «أبو طالب وحمزة» ابنا عبد المطلب» .

وهناك في بيتها ألفَوا قومها ينتظرون ، وكل شيء مهيأ لزواج : سريع ... وتكلم «أبو طالب» :

«أما بعد : فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش ، الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل ، فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ...» .

فأثنى عليه عمها «عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ» وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة [2] .

ولما انتهى العقد ، نحرت الذبائح ودقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فاذا بينهم «حليمة» قد جاءت من بادية بني سعد ، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته ، ثم لتعود في الغداة ومعها أربعون رأسا من الغنم ، هبةً من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت «محمدا» زوجها الحبيب ...

---

(١) راجع هذا الحديث كله ، في الجزء الاول الروض الأنف للسهيلي ٢١٤ ، وعيون الأثر ١/٥٠ . ونفسية بنت مُنية ، هي بنت أمية بن أبي عبيدة التميمية الحنظلية . تنسب إلى أمها منية بنت جابر . ترجمتها في الإصابة ٨/٢٠٠ والاستيعاب ٤/١٩١٩ .

(٢) في رواية لابن إسحاق والزهري ، أن أباها هو الذي زوجها . والتفصيل في (عيون الأثر ١/٥٠) السيرة ١/٢٠١ ، وفي رواية أخرى انه أصدقها اثنتي عشرة أوقية : السمط ١٥ ، والمحبر ٧٩ .

وتندت عينا «محمد» وهو يتفقد أمه «آمنة» فاذا يد لطيفة رقيقة، تأسو الجرح القديم في حنان غامر، وإذا به يجد في «خديجة» عوضا جميلا عما قاساه من طويل حرمان...

* * *

ولم يعنِ «مكةَ» من أمر الزوجين السعيدين، سوى أن زواجا ربط بين «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي» و«خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ» (١).

ولكن «التاريخ» تلبث بعد بضع عشرة سنة، ليسجل يوم العرس المشهود، بين أيامه الخالدات على مر الزمان.

وقد انصرف إلى حين، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها «مكة» ويترشفان على مهل، رحيق ودٍّ صاف عميق، سيظل حديث التاريخ.

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاما، ناعمين بالألفة والاستقرار، وقد أتم الله عليهما نعمته، فرزقهما البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة (٢).

وأرخى الزمن لهما في حياتهما تلك الرخية الهادئة أعواما ذات عدد، ارتوى «محمد» خلالها من نبع الحنان، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم، ومتزودا لغد مقبل، حافل بالكفاح المضني والشواغل الجسام.

---

(١) وأم خديجة: فاطمة بنت زائدة بن الاصم بن هرم بن رواحة. راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤) وتاريخ الطبري (١٧٥/٣) ونسب قريش: ٢٣٠ والمحبر ١٢، ١٨.

(٢) انظر السيرة: ٢٠٢/١، وتاريخ الطبري ١٧٥/٣ والمحبر ٧٩، والاستيعاب ١٨١٧/٤، ونسب قريش ٢١.

وقد ذاقا في تلك الفترة لوعة الثكل في الولدين العزيزين ، فكان للزوجين في وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التي تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما إلا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ! [1] .

---

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد وأمومة خديجة ، لأن موضع هذا الحديث في كتابنا عن «بنات النبي» ﷺ .

وذكر الطبري أن هند بن أبي هالة ، كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد - ﷺ - وفي ترجمة هند بطبقات الصحابة ، والحفاظ ، وكتب الأنساب ، أنه ربيب رسول الله ﷺ .

مع المصطفى ﷺ في ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير، لا في حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب، ولا في حياة قريش والعرب وحدهم، بل في حياة الانسانية جمعاء.

لقد تلقى «محمد» رسالة الوحي، في ليلة القدر، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام، وبعثه في الناس بشيرا ونذيرا...

وكانت الرسالة ايذانا بحياة جديدة، شاقة كادحة، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والعذاب، والجهاد، ثم النصر.

وفي الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبي جديد قد حان مبعثه، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها! [١].

و«مكة» على الخصوص، كانت الموضع الذي تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشْرَيات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول «البيت العتيق»: مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد...

---

(١) انظر هذه الأنباء بالتفصيل في الجزء الاول من سيرة ابن هشام، ط الحلبي - وفي الجزء السادس عشر من نهاية الارب للنويري، ط دار الكتب وفي الجزء الاول من عيون الأثر ووفاء الوفا، بأخبار دار المصطفى للسمهودي. ط السعادة بمصر.

لكن أحداً لم يكن يدري يقينا كيف ومتى يكون المبعث المنتظر، ومن هنا كان لنزول الوحي على المصطفى ﷺ، وقع المفاجأة العنيفة التي جاوزت أبعاد التصور. كان منذ استقرت به الحياة في رعاية الزوج الرءوم، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومي، أتيح له أن يستجيب لما في نفسه من نزوع إلى التأمل، وميل إلى التفكير المستغرق. وهي نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا. ووجدت في ساعات فراغه – أيام رعيه للغنم – مجالا رحبا، ثم صرفه عنها كدح العيش، لتعود فتظهر من جديد، قوية أصيلة، كأنما هي فطرة فيه.

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة، تلك التي صنعت تاريخ «مكة» وتاريخ أسرته بوجه خاص [1]، ووصلت ما بين أبيه «عبد الله» و«اسماعيل» جد العرب، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها، فأحيت بحادث فداء «عبد الله» من الذبح، ذكرى متناهية في القدم، لمشهد الذبيح الأول: ابن ابراهيم.

وانبلج له نور الحق، فرفض هذه الأصنام التي تكدست في بيت الله، صماء عمياء، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا، وأنكر أن تخف أحلام قومه، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا.

وأرهف التأمل حسه، فإذا هو يستشف أدق ما في الكون من أسرار، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء، قوة عظمى خفية، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون...

* * *

وما شارف الأربعين، حتى كان قد ألف الخلوة في غار «حراء» واستطاب رياضته الروحية التي يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلي السر

---

(١) السيرة: ١٦٣/١ – واقرأ الفصل الخاص بمكة في كتابنا «أم النبي» ﷺ.

الأعظم ، وما كانت «خديجة» في وقار سنها وجلال أمومتها لتضيق بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ماوسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت ، فاذا انطلق الى غار «حراء» ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه [1] ، دون أن يقتحم عليه خلوته أو يفسد وحدته.

وهكذا بدا كأن كل شيء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها – رغم هذا التهيؤ– زلزلت حين جاءت ، أرجاء ذلك العالم الذي طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت كيان ذلك النبي المصطفى «محمد بن عبد الله» الذي ما رضي قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا ارتاب قط في أن حياة قومه لن تمضي هكذا على سفهٍ وضلال...

فما نزل عليه الوحي في ليلة القدر وهو في غار «حراء» ، حتى انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر خائفا شاحبا مرتعد الأوصال ، وإذ بلغ حجرة زوجه ، أحس أنه وصل إلى مأمنه ، فحدثها في صوت مرتجف عن كل ما كان ونفض لديها مخاوفه :

أتراه يهذي حالما؟.. أم به جِنَّة؟..

وضمته إلى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة في قلبها ، وهتفت في ثقة ويقين :

«الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده ، اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا... انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق» [2].

---

(١) السيرة ٢٥٣/١ والسمط الثمين : ١٩ والإصابة ٢٠٠/٨.

(٢) السيرة ٢٥٣/١ وشرحها في الروض الأنف ٢٧٠/١ ، وتاريخ الطبري : ٢٠٥/٢ - ٢٠٧ ، والسمط الثمين ص ١٠ ، وعيون الأثر ٨٣/١ ، والإصابة ٢٠٠/٨.

وأشرقت أساريره وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا به جِنّة ، وهذا صوت « خديجة » العذب الحنون ، ينساب مع ضوء الفجر الى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء.

وأحس الراحة والطمأنينة وهي تقوده في رفق الى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي ، ثم تهدهده بصوتها الحلو ، وتنثر على مضجعه أسنى الأحلام.

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق في نومه الهادئ المطمئن ، ورفَّ حوله قلبها ملء الحب والإيمان ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى اذا بلغت الباب اندفعت الى الطريق الخالي ، تحث خُطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة.

وجاءت « ورقة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما كاد يصغي الى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا ، وتدفقت الحيوية في بدنه الواهن ، فانتفض يقول في حماسة :

« قدوس ... قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتِني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى ، وانه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » [(١)].

ولم تنتظر مزيدا من قوله ، ولم تستعد كلمة واحدة منه ، بل طارت الى زوجها الحبيب تعجل له بالبشرى ، فاذا به لا يزال نائما كما تركته.

وعز عليها أن توقظه ، فجلست بالقرب منه منتظرة ، تكاد نفسها تذوب من لهفة عليه وحب وحنان ، ثم اذا به فجأة ينتفض في فراشه ، وتتثاقل أنفاسه ، ويتفصّد العرق من جبهته ... وظل على ذلك فترة قبل أن تعاوده سكينته وتنتظم أنفاسه ،

---

(١) السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبري : ٢٠٦/٢ والحديث مخرج في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها.

ويبدو عليه كأنما يصغي الى محدث غير مرئي ، ثم يتلو في بطء كأنه يستعيد درسا ألقي عليه :

«يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربَّك فكبِّر، وثيابَك فطهِّرْ. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربك فاصبر» (١) .

وتلقته «خديجة» من صحوه بين ذراعيها ، وحدثته بما سمعت من «ورقة بن نوفل» فرنا محمد – ﷺ – اليها مليا بنظرة تفيض شكرا وامتنانا ، حتى اذا ملأ عينيه من تلك التي ملأت دنياه حبا وأمنا وسلاماً ، استدار فنظر الى الفراش وقال في تأثر :

«انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأن أدعوهم الى الله والى عبادته ، فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب؟»

وبارك زوجه ، أول من آمن به ، وهو يشعر بسكينة وراحة ، ثم استجاب لها فقام ينشد «ورقة» الذي صاح حين لمحه مقبلا :

«والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الأمة ، ولتكذَّبن ، ولتؤذَين ، ولتُخرجَن ، ولتُقاتلن ، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه !»

ثم أدنى رأسه اليه فقبل يافوخه .

قال محمد ﷺ : «أو مخرجيَّ هم؟» .

أجاب «ورقة» : «نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به الا عودي ، ليتني أكون فيها جذعا ... ليتني أكون حيا !» (٢) .

* * *

وطابت نفسه ، ﷺ ، بما سمع ، فآب الى بيته مطمئنا ليبدأ نضاله من أجل

---

(١) سورة المدثر : الآيات ١ : ٧

(٢) صحيحا البخاري ومسلم ، السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبري : ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .

الدعوة ، وليلقى في سبيلها أشقّ ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التي وجدوا آباءهم لها عابدين.

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه ، تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قُضي على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبي طالب ، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوق الكعبة [1] ، لم تتردد «خديجة» في الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد.

وأقامت هنالك في شِعب أبي طالب ثلاث سنين ، صابرة مع الرسول ومن معه من صحبه وقومه ، على عنت الحصار المنهك ، وجبروت الوثنية الراسخة العاتية العمياء.

* * *

(١) السيرة : ١/٣٧٥ وتاريخ الطبري ٢/٢٢٨.

عام الحزن

حتى تهاوى الحصار أمام ذلك الإيمان الصادق والمجاهَدة الباسلة. وآن للنبي ﷺ أن يعود إلى بيته في جيرة الحرم المكي، مع زوجه المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة، ما أبقى لها الزمن من طاقة، في عامها الخامس والستين.

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار، مات العم «أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم» وقد كان لابن أخيه، ﷺ، أباً صديقاً وكافلا وحاميا، ومانعاً له من طواغيت قريش، قومه.

ولم تشهد رضي الله عنها مأتمه. كانت في فراشها تودع الدنيا، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا. ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام، بين يدي الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته، والنبي الذي صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها، وكانت له سكنا وأنسا وملاذا، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. ودفنها، ﷺ، بالحجون.

* * *

كانت وفاتها، رضي الله عنها، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح[1].

وتلفت محمد ﷺ حوله، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء، وإذا «مكة» تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان...

قال «ابن اسحق»: «فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الاسلام!»[2].

---

(١) ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١٣٠/١) والإصابة ٦٢/٨، والمحبر لابن حبيب ١١.

(٢) السيرة: ٥٧/٢ تاريخ الطبري: ٢٢٩/٢، عيون الأثر ١٣٠/١.

وبلغت متاعبه ، ﷺ أقسى مداها في عام موت «خديجة» الذي سمي «عام الحزن» ، وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء . وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب ، وما دروا ان الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر...

ذلك ان «خديجة» لم تمض الا وأمين الوحي يرعى النبي ﷺ غاديا رائحا ، يذود عنه اليأس والإعياء ، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد في سبيل دعوته مجدا وانتصارا...

لم تمت «خديجة» إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت «مكة» الى أطراف الحجاز ، ثم الى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار الى «الحبشة» مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر ، مالئين الأسماع والقلوب بحديث مثير عن شرف الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد .

لم تمت «خديجة» إلا وفي الموسم بمكة ، رجال من «يثرب» لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة المقدسة ، ليظفروا بإحدى الحسنيين ، النصر على أعداء الله ، أو الاستشهاد في سبيله...

* * *

ملء الحياة

ولكن ، هل ماتت «خديجة» حقا؟

كلا !.. انها لماثلة في حياة زوجها الرسول ﷺ ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه ، وما يسري إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الظلمات...

وستدخل بعدها في حياته ﷺ ، نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفي دنياه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوج الأولى ، والحبيبة الرءوم التي انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان ، لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح في أفقه ظل من شريكة سواها .

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح «خديجة» عن مكانها هناك ، ولن تفلح في ابعاد طيفها الذي أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر باعزازه ما عاش .

وستشهده «المدينة» بعد أعوام عندما انتصر في «بدر» يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها «زينب» في فداء زوجها الأسير «أبي العاص بن الربيع» حتى يرق قلب البطل الرسول من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، في أن يردوا على «زينب» قلادتها ويفكوا أسيرها [1] .

وسيشهد بيت النبي «عائشة بنت أبي بكر» في عزة صباها ونضرة شبابها وحب النبي ﷺ لها ، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التي سبقتها إلى قلب «محمد» واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه : أقبلت «هالة» — أخت خديجة — لزيارة المدينة ، وسمع عليه الصلاة والسلام صوتها في فناء بيته ، وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ، فهتف خافق القلب :

«اللهم هالة !»

---

(١) السيرة ٢٠٧/٢ . ولحديث القلادة فصل خاص في كتاب «بنات النبي» ﷺ .

فما ملكت «عائشة» نفسَها أن قالت :

«ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، أبدلك الله خيرا منها؟ !» [١] .

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا :

«والله ما أبدلني الله خيرا منها : آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني اذ كذبني الناس ، وواستني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء» [٢] .

فأمسكت «عائشة» وهي تقول في نفسها :

«والله لا أذكرها بعدها أبدا»...

وكانت قبل ذلك ، لا تكف عن الكلام فيها !

قالت له يوما وقد ألفته لا ينقطع عن ذكرها :

«كأنْ لم يكن في الدنيا امرأة الا خديجة !»

فرد عليها ، ﷺ :

«... انها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد...»

ورأته ﷺ إذا ذبح الشاة يقول : أرسلوا إلى أصدقاء خديجة . فحدثته في ذلك مرة ، فقال : إني لأحب حبيبها ! [٣] .

وفي رواية بصحيح مسلم ، أنه ﷺ قال : «إني قد رُزقتُ حبَّها» [٤] .

وطالما سُمعت عائشة رضي الله عنها تقول :

«ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجني رسول الله ﷺ الا بعد ما ماتت» [٥] .

---

(١) صحيح مسلم : باب فضائلها ، ح (٢٤٣٧).

(٢) ، (٣) السمط الثمين : ٢٦ والاستيعاب : ١٨٢٤/٤ .

(٤ ، ٥) صحيح مسلم : فضائلها رضي الله عنها ، ح (٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨ .

أو تقول :

«ما غِرْتُ من امرأة لرسول الله ﷺ ، ما غِرْتُ من خديجة ، لما كنت أسمع من ذكره لها . وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين» وفي رواية : «لكثرة ذكره إياها ، وما رأيتها قط» [1] .

* * *

وحتى يوم الفتح — وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث — رُئي رسول الله ﷺ ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذي ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليشرف منه على فتح «مكة» وليقيم في قبة ضربت له هناك [2] ، تؤنسه روح «خديجة» ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى الى بيتها العزيز ، حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الكفاح المضني الطويل...

وستدخل في الاسلام من بعد «خديجة» ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التي آثرها الله بالدور الأجل في حياة البطل الرسول . وسيذكر لها المؤرخون — المسلمون منهم وغير المسلمين — ذلك الدور ، فيقول «بودلي» :

«ان ثقتها في الرجل الذي تزوجته - لأنها أحبته — كانت تضفي جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التي يدين بها اليوم واحد في كل سبعة من سكان العالم» [3] .

ويؤرخ «مرجليوث» حياة محمد - رسولا - باليوم الذي لقي فيه خديجة «ومدت يدها اليه تقديرا» . كما يؤرخ حادث هجرته الى «يثرب» باليوم الذي خلت فيه «مكة» من «خديجة» ورقدت تحت الثرى...

ويطيل «درمنجم» [4] الحديث عن موقف «خديجة» حين جاءها زوجها من

---

(١) صحيح مسلم (ح : ٢٤٣٥) والاستيعاب : ١٨٢٣/٤ .

(٢) تاريخ الطبري حوادث السنة الثامنة للهجرة «جـ ٣» .

(٣) بودلي : الرسول ، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٤) حياة محمد لدرمنجم ص ٥٨ من الترجمة العربية للاستاذ عادل زعيتر .

غار حراء «خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات ... فاذا بها ترد اليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا».

وكتب عن وفاتها :

«... فَقَدَ محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التي لم تكف عن القاء السكينة في قلبه ... تلك التي ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات».

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فرجليوث يجعل لمال خديجة المكان الأول في زواج كهذا «بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بني مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضي فيكتب ، بكلمات تقطر حقدا وزُورا :

«إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب حين خطب إليه ابنته أم هانئ ، فرده لفقره وزوجها لذي مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره»[1].

وكذب «مرجليوث» فما كان مال «خديجة» هو الذي جذب «محمدا» وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن ، وانما وجد فيها كما شهد «بلاشير» في كتابه Le probléme de Mohamed تلك الرقة المتناهية والحنان الغامر.

وكان ما بينهما من فرق السن كافيا وحده لأن يرضي حاجته الملحة الى عطف الأمومة التي افتقدها منذ كان طفلا في السادسة ، وظل على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق ...

وأعجب من قول «مرجليوث» هذا ، ما تحدث به «مويد»[2] عما وراء وفاء

---

(١) راجع في أمر هذه الخطبة : طبقات ابن سعد ، السمط الثمين ١٣٤ .

(٢) The Life of Mohamed and the History of Islam

محمد – ﷺ – لخديجة من تهيب لمركزها المالي والاجتماعي ، وخوف من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على «موير» أن يفسر لنا : فيم إذن كان وفاء الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، لخديجة بعد موتها؟... وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم «عائشة» فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها؟!

لقد كانت «خديجة» ملء حياته ﷺ حية وميتة ، وما جاوزت «عائشة» الحق حين قالت : «كأن لم يكن في الدنيا امرأة سواها».

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟!

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيئ له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها – في ايثار نادر – ما أعده لتلقي رسالة السماء؟!

هل كان لزوج عداها ، أن تستقبل دعوته التاريخية من غار «حراء» ، بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان راسخ دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غير مخزيه أبدا؟!

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه في أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟

كلا... بل هي وحدها التي مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وأن كانت أول الناس إسلاما ، كما بها أمَّن على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ملاذا وسكنا ووزيرا.

قال ابن اسحق [1] : «كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه

---

(١) في السيرة : ٢٥٧/١ - وانظر السمط الثمين : ٢٣.

وتكذيبه له فيحزنه ذلك ، الا فرج الله عنه خديجة رضي الله عنها : اذا رجع اليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضي الله عنها»[1] .

* * *

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ ، وملء التاريخ الاسلامي . وقد أفردت لهن كتابي عن «بنات النبي» وفيه تفصيل ما أجملت هنا عن أمومة السيدة خديجة ، أم المؤمنين الأولى رضي الله عنها وعنهن .

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين ، بأن حفظ في نسل الزهراء بنت الطاهرة ، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام ، قبسا من سَنا نوره ونفحة من عطر شذاه . فهي أم آل بيت النبي ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

(١) وانظر فضائلها رضي الله عنها في : المناقب من صحيح البخاري والفضائل من صحيح مسلم .

(٢)

سودة بنت زمعة رضي الله عنها

المهاجرة أرملة المهاجر

«... ووالله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك»

سودة بنت زمعة

رضي الله عنها

(الإصابة)

وحشة

الأيام تمضي ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد ، والليالي كوالح مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد ﷺ – في وحدته بعد خديجة : أم العيال وربة البيت ووزيرُه في الإسلام والشريكة في الجهاد – يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، ليسامر طيف التي ملأت دنياه .

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة ، ويودون لو يتزوج ، لعل في الزواج ما يؤنس وحشته بعد «أم المؤمنين» الراحلة .

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه في موضوع الزواج ، حتى كانت «خولة بنت حكيم السلمية» [١] هي التي سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول : «يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلَتْك خَلَّةٌ لفقد خديجة !»

فأجاب : «أجل ، كانت أم العيال وربة البيت» .

فتشاغلت «خولة» بالنظر الى بعيد ، ثم أقبلت على الرسول فاقترحت عليه فجأة أن يتزوج !

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، يصغي الى وجيب قلبه العامر بذكرى الراحلة ، ويتذكر «نفيسة بنت منية» حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة ، تحدثه في الزواج وتعرض عليه «خديجة بنت خويلد» !

ثم آب إلى محدثته وسألها في نبرة عتاب :

– مَن ... بعد خديجة ؟

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/١٧٥ والسمط الثمين : ١٠٣ ، والإصابة ٨/١١٧ .

فردت «خولة» على الفور، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب:
«عائشة... بنت أحب الناس إليك»! [1]

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه: أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه علي، ومولاه زيد، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق.

وذكر الرسول مع «أبي بكر» ابنته عائشة، تلك الصبية اللطيفة الحلوة، التي طالما آنسته بمرحها ولطفها، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة...

ولم يستطع أن يقول لخولة: لا...

ولو حاول أن يقولها، لما طاوعه لسانه!

أيرفض بنت أبي بكر؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة، ومكانة لأبي بكر عند الرسول لم يظفر بها سواه، وأنس الى تلك الصغيرة العزيزة، الذكية الملامح، اللطيفة المحيا...

– لكنها ما تزال صغيرة يا خولة...

وكان رد «خولة» حاضرا:

– تخطبها اليوم الى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج...

حتى تنضج؟..

لكن، من للبيت يرعى شئونه، ومن لبنات الرسول يخدمهن؟

وهل جاءت «خولة» لتعرض زواجا آجلا، لن يتم قبل سنتين أو ثلاث؟..

كلا، بل جاءت وفي خاطرها اثنتان، احداهما بكر وهي «عائشة بنت أبي

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/١٧٥.

بكر . . . » والأخرى ثيب ، هي «سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ العامرية»[1] وأمها «الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو» من بني عدي بن النجار[2] .

وأذن لها ﷺ في خطبتها ، فمرت أولا ببيت «أبي بكر» ثم جاءت بيت «زمعة» فدخلت على ابنته «سودة» تقول :

— ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة؟

فسألت «سودة» وهي لا تدري مرادها :

— وماذا ياخولة؟

قالت :

— أرسلني رسول الله أخطبك عليه !

وجاهدت «سودة» لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت في صوت مرتجف :

— وددت !.. ادخلي على أبي فاذكري له ذلك .

فدخلت «خولة» عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت :

— ان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلني أخطب عليه سودة .

فصاح الشيخ :

— كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته؟

---

(١) من بني عامر بن لؤي — انظر نسب قريش «٤٢١» وجمهرة الأنساب «١٥٧» ذخائر.

(٢) كذا في السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨ ، والمحبر ٧٩ والذي في نسب قريش «٤٢٢» وجمهرة أنساب العرب «١٥٨» وعيون الأثر ٣٠٠/٢ أنها بنت قيس بن عمرو بن زيد.

أجابته خولة :

– تحب ذاك .

فسألها أن تدعوها اليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :

– أي سودة ، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه؟

قالت : نعم [١] .

وهنا أشار «زمعة بن قيس» الى خولة أن تدعو اليه «محمدا» ، فقامت تدعوه للزواج .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/١٧٦ ، والنقل منه ، والسمط الثمين ١٠٢ .

هجـرة وترمل

وشاع في «مكة» أن محمدا ﷺ قد خطب «سودة بنت زمعة» فكاد ناس لا يصدقون سمعهم، فما في مثل «سودة» مأرب، وتساءلوا في ارتياب: أرملة مُسِنَّة، غير ذات جمال، تخلف «خديجة بنت خويلد» التي كانت يوم خطبها الشاب الهاشمي، سيدة نساء قريش، ومطمح أنظار السادة من قريش؟

كلا، لن تخلف «سودة» أو سواها «خديجة» وإنما تجيء إلى بيته ﷺ جبرا لخاطرها، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها: «السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشي العامري» الذي هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة، ثم مات عنها وترك أرملته من بعده، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترمل.

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثمانية من بني عامر، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك.

من هؤلاء النفر الثمانية، كان: «مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامري» أخو سودة، و«السكران بن عمرو بن عبد شمس» زوجها وابن عمها، وأخواه «سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس» وابن أخيه «عبد الله بن سهيل ابن عمرو» (١).

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم، وكلهن عامريات: سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس.

---

(١) السيرة: ٣٥٢/١، وتاريخ الطبري: ٢٢٢/٢، وعيون الأثر ١١٥/١ ١١٨ مع: جمهرة الأنساب ١٥٧، والسمط ١٠١.

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، في سبيل الله.

وتمثل الرسول «سودة» وهي تودع أرضا عزيزة حُلَّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضي الى بلد مجهول ، وناس لا هي منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربي ، ودينهم غير الاسلام ، وقبل أن تئوب من غربتها ، وتهبط «أم القرى» فاضت روح زوجها «السكران بن عمرو» ... لم يمهله الموت ريثما يعود كيما يدفن في ثرى مكة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان[1].

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت «خولة بنت حكيم» تذكرها له ، حتى مد يده الرحيمة اليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذي ذاقت من قسوة الحياة.

* * *

(١) في موت السكران بن عمرو روايتان : أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجرا. وقيل : عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة.

حكاهما ابن عبد البر في ترجمة السكران بالاستيعاب (٦٨٥/٢) وعلى القول الأول موسى بن عقبة ، وابن حزم في الجمهرة (١٥٧) والزبير بن بكار ، فيما نقل ابن سعد. وعلى الثاني : ابن إسحاق في السيرة (٧/٢) والواقدي ، حكاه ابن سعد أيضا وابن حجر في ترجمتها بتهذيب التهذيب ، وابن سيد الناس في (عيون الأثر ٣٠٠/٢).

وهبت لياليَّ لعائشة

وأصبحت «سودة» ذات يوم، فإذا هي زوجة لرسول الله ﷺ [1].

وداخلتها رهبة من جلال زوجها، وقاست نفسها اليه ﷺ، ثم الى «خديجة» الزوجة الأولى، ثم الى «عائشة» العروس الصبية المنتظرة، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها.

ولم تخدعها نفسها قط، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب «محمد» ﷺ - حاجزا لا سبيل الى اقتحامه.

وعرفت من اللحظة الأولى التي جمعتها بزوجها، ان «الرسول» هو الذي تزوجها، لا «الرجل» الذي لم تجرده النبوة من بشريته.

وأيقنت دون ريب، ان حظها من الرسول بر ورحمة، لا حب وتآلف وامتزاج...

لكن ذلك لم يرعها، بل كان حسبها ان رفعها رسول الله الى تلك المكانة، وأن جعل منها - أرملة السكران بن عمرو أما للمؤمنين.

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت رسول الله، وأن تخدم بناته...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها وكانت ثقيلة الجسم وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها...

قالت له مرة:

---

(1) في خير بالمحبر (٨٠) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه، ففسرها بقرب موته، وزواجها من بعده بالنبي عليه الصلاة والسلام. فاشتكى من يومه ذلك، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات.

«صليت خلفك الليلة يا رسول الله، فركعتَ بي حتى أمسكتُ بأنفي مخافة أن يقطر الدم!»[1].

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة، روى «ابن اسحاق»:

قُدِم بأسرى بدر، وسودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء، في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب.

«قال: تقول سودة: والله إني لعندهم إذ قيل: هؤلاء الأسارى قد أُتي بهم. فرجعت إلى بيتي ورسول الله ﷺ فيه، وإذا أبو يزيد، سهيل بن عمرو – أخو السكران بن عمرو – في ناحية الحجرة، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلا والله ما ملكتُ نفسي، حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أي أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراما؟

فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله ﷺ من البيت:

«يا سودة، أعلى الله ورسوله تحرضين؟»

قلت: – يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت![2].

* * *

ظلت «سودة» تقوم على بيت النبي ﷺ، حتى جاءت «عائشة بنت أبي بكر» فأفسحت لها «سودة» المكان الأول في البيت، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة، وأن تسهر على راحتها.

(١) الاستيعاب ١٨٦٧/٤، والإصابة ١١٨/٨.

(٢) السيرة: ٢٩٩/٢.

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي زاد الركب ، فما ترددت سودة في إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها ، وان لم تظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات اللاتي يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول .

لكنه ﷺ ، أشفق عليها من الحرمان العاطفي ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فأنى له – وهو بشر – أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بارادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحسَّ أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وان لم تبد منها بادرة شكوى أو ضيق ، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها .

وسمعت النبأ ذاهلة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها الى الرسول في ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذي كاد يقضي عليها ...

واذ ذاك آبت اليها سكينتها فهمست في ضراعة :

– أمسكني ، ووالله ما بي على الأزواج من حرص ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجا لك [1] .

---

(١) ابن حجر ، الاصابة : ١١٧/٨ ، والنقل منه ، ونحوه في الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفي رواية أخرى بالخبر ٨٠ وفي الإصابة ، أنه ﷺ بعث إليها بطلاقها فقعدت في طريقه وناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها لعائشة .

ثم أطرقت محزونة ، وقد عزّ عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته في تسريحها وهي التي تهب حياتها راضية في سبيل مرضاته .

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس على حبه عائشة بنت أبي بكر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر ! ... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا ، بل شعرت انها اذ تأخذ ليلتها مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه ! ..

وهمت بأن تجيب في قهر وعلى استيحاء :

– سرحني يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت في حلقها ...

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ، ورسول الله إلى جانبها ينظر اليها صامتا في إشفاق وتأثر .

وفجأة ، لاح لها خاطر سكنت له نفسها ، فقالت في هدوء :

– أبقني يا رسول الله ، وأهب ليلتي لعائشة ، وإني لا أريد ما تريد النساء [1] .

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم : يأتي سودة ليسمعها كلمة الطلاق – وما أبغضها ! – فيكون جوابها هذا الايثار النبيل ، تتحرى به مرضاته . الزوج الكريم .

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج محمد الى المسجد لصلاة الفجر ، وقامت «سودة بنت زمعة» في مخدعها تصلي وقلبها عامر بنشوة الرضى والايمان !

* * *

---

(١) الاصابة : ٨/١١٧ والاستيعاب : ٤/١٨٦٧ – وصحيح مسلم – وانظر السمط الثمين ، ص ١٠٣ – ويقال انها قد أشرفت يومئذ على المئة !

فلتدعها في صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزي بالحرص على الأزواج في مثل سنها العالية !

ولقد عاشت في بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه ، وفي الخبر أنها عمرت حتى «توفيت في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه» [١] وقد ظلت أم المؤمنين عائشة ، تذكر لها صنيعها ، وتؤثرها بجميل الوفاء ، فتقول : «ما من امرأة أحب إليَّ من أن أكون في مسلاخها . من سودة بنت زمعة ، ... لما كبرتْ قالت : يا رسول الله قد جعلت يومي منك لعائشة» . الحديث [٢] .

---

(١) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر، ٢/٣٠١.

(٢) صحيح مسلم : كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) ونحوه في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

(٣)

عائشة بنت أبي بكر

حبيبة سيد البشر الصديقة بنت الصديق

«أي بُنيّة، خفّضي عليك الشأنَ فواللهِ لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثَّرن عليها»

أم رومان
من حديث الإفك
في الصحيحين

الصهر الكريم

«إن أَمَنَّ الناس عليّ في ماله وصحبته أبو بكر. ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنْ أخوة الإسلام»

حديث نبوي

أخرجه مسلم في صحيحه

عندما ذكرت «خولة بنت حكيم السلمية» للرسول عليه الصلاة والسلام اسمَ عائشة بنت أبي بكر، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس اليه من صحبة وقربى، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق.

وتتحدث خولة عن مسعاها في هذه الخطبة فتقول فيما نقل الطبري [١] :

«دخلت بيت أبي بكر فوجدت «أم رومان» أم عائشة، فقلت لها:

— أي أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!

قالت: وما ذاك؟

أجبت: أرسلني رسول الله أخطب له عائشة!

فقالت: وددت، انتظري أبا بكر فانه آت...

وجاء «أبو بكر» فقلت له: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة! أرسلني رسول الله أخطب «عائشة»...

قال وقد ذكر موضعه من الرسول: وهل تصلح له؟.. انما هي ابنة أخيه...

---

(١) تاريخ الطبري ١٧٦/٣، وانظر معه المحب الطبري في السمط الثمين ص ٣١.

فرجعت إلى رسول الله فقلت له ذلك ، فقال :

– ارجعي إليه فقولي : أنت أخي في الإسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي .

فأتيت «أبا بكر» فذكرت له فقال : انتظريني حتى أرجع ...

وقالت «أم رومان» تجلو الموقف للخاطبة :

– إن المطعم بن عدي كان قد ذكر عائشة على ابنه «جبير» ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف .

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته «أم جبير» – وكانت مشركة – فقالت العجوز :

– يا ابن أبي قحافة ، لعلنا إن زوّجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟ ! [1]

فلم يرد عليها «أبو بكر» بل التفت الى زوجها «المطعم» فقال :

– ما تقول هذه؟

– أجاب : إنها تقول ذلك «الذي سمعت» .

فخرج «أبو بكر» وقد شعر بارتياح لما أحلّه الله من وعده ، وعاد الى بيته فقال لخولة : ادعي لي رسولَ الله ...

فمضت «خولة» إليه ﷺ ، فدعته ، فجاء بيت صديقه أبي بكر ، فأنكحه عائشة وهي يومئذ بنت ست سنين أو سبع »

وكان صداقها خمسمائة درهم ...

ولا يذكر التاريخ عنها اذ ذاك ، الا أنها بنت ست سنين أو سبع . وانها كانت قد

---

(١) المحب الطبري : السمط الثمين ٣١ .

خطبت لجبير بن المطعم بن عدي ، وأبوها أبو بكر بن قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر ، من بني الحارث ابن غنم بن كنانة [١] .

وقد عُرف قوم عائشة ، بنو تيم ، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي ، كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن...

ثم كان لأبيها الى جانب هذا الميراث الطيب ، شهرة ذائعة في دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الاسلام على انه «كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته» [٢] .

فلما بعث محمد ﷺ ، أضاف «أبو بكر» الى هذا كله شرف السبق إلى الاسلام ، وكان المناضل عنه بكل ما يملك ، الداعي إليه في شجاعة وحماسة . وممن أسلم من الصحابة بفضل أبي بكر واستجابة لدعوته : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ... وهم من العشرة المبشرين بالجنة ، رضي الله عنهم .

قال عليه الصلاة والسلام :

«ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبي بكر بن قحافة ، ما عكم -- أي ما تلبث - حين ذكرته له وما تردد فيه» .

«ما نفعني مال قط ، ما نفعنا مال أبي بكر» . قيل فبكى «أبو بكر» وقال : «يا رسول الله ، وهل أنا ومالي إلا لك؟» [٣] .

* * *

(١) السيرة : ٢٩٣/٤ -- وتاريخ الطبري : ١٧٧/٣ والاستيعاب ١٨٨١/٤ ، وعيون الأثر (٣٠٠/٢) .
ومات المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بمكة مشركا قبل بدر . وذكره ﷺ بخير في أسراها من قريش . وأسلم جبير يوم فتح مكة . وأمه أم جميل بنت سعيد العامرية .

(٢ ، ٣) السيرة : ٢٦٧/١ -- وانظر معه مناقب أبي بكر في صحيح البخاري : ٢٠٠/٢ ولفضائله في الجزء الرابع من صحيح مسلم .

وأم عائشة: أم رومان بنت عامر الكنانية، [1] من الصحابيات الجليلات. كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي فولدت له الطفيل، ثم توفي عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن. وهاجرت الى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول وصاحبه بها، فلما توفيت في حياة الرسول – بعد حادث الافك – نزل ﷺ قبرها واستغفر لها وقال: «اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك» [2] وقال عليه الصلاة والسلام: «مَن سره أن ينظر إلى امرأةٍ من الحور العين فلينظر إلى أم رومان» [2].

---

(1) لا خلاف في نسبها في بني مالك بن كنانة، لكن الخلاف من أبيها الى كنانة كثير جدا كما صرح في الاستيعاب (١٩٣٦/٤) راجع معه الاصابة، ونسب قريش: ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب: ١٢٧ – ذخائر، والمحبر ٨٠، وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢.

(2) أخرجه ابن سعد في ترجمتها بطبقاته، وعنه ابن حجر في الإصابة كما أخرجه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، ولم يختلفوا في وفاتها بعد محنة الإفك، لكنهم اختلفوا في تحديد سنة الوفاة.

راجع ترجمتها في طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكُنَى) ومعها: تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٦٧/١٢.

مألوفة

كان حسب «عائشة» أن تكون بنت أبي بكر، ليُنزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته في أعز مكان... لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضير.

وُلدت بمكة في الاسلام، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هي وأختها أسماء، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة.

وعرفها ﷺ، منذ طفولتها الباكرة، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها تنمو بين عينيه وبتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة، مع فصاحة في اللسان وشجاعة في القلب، اذ كان الذي تولى حضانتها جماعة من بني مخزوم وبلغ من اعزاز الرسول لها أن كان يوصي بها أمها قائلا:

«يا أم رومان، استوصي بعائشة خيرا واحفظيني فيها».

فاذا رآها يوما غاضبة، وقف في صفها وقال لأمها في عتاب رقيق:

«يا أم رومان، ألم أوصِكِ بعائشة أن تحفظيني فيها؟»

* * *

ولم تدهش «مكة» حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا. ولم يجد فيها أي رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو منفذا للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه الا سلكوه، ولو كان بهتانا وزورا وافتراء.

وماذا عساهم أن يقولوا؟...

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها على أبعد تقدير؟

لكنها قد ذكرت قبل أن يخطبها ، على «جبير بن مطعم بن عدي» بحيث لم يستطع «أبو بكر» أن يعطي كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبي جبير.

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية في سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين؟

وأي عجب في مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف في تلك البيئة إلى رجل في سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من «هالة» بنت عم «آمنة» في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من ترب هالة «آمنة بنت وهب»

وسيتزوج «عمر بن الخطاب» من بنت علي بن أبي طالب ، وهو في سن فوق سن أبيها!

ويعرض «عمر» على «أبي بكر» أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة» وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول وعائشة.

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد نحو ألف وثلاثمائة عام من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والبيئة ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء» ، ويقيسون بعين الهوى ، زواجا عقد في مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهي سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة في الجزيرة العربية ، بل في ريف مصر وأكثر مناطق الشرق. وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

«كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب ، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين...

«ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد... نظروا اليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا في ان هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوربا ، وكانت طبيعية في اسبانيا والبرتغال الى سنين قليلة ، وانها ليست غير عادية اليوم ، في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة...»[1].

---

(١) بودلي : الرسول – ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار.

الهجرة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهي حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها ، بل تركها حيث هي في بيت أبيها ، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال ...

وكان كل حظه منها أن تسرع اليه كلما مر ببيت «أبي بكر» فتكاد تنسيه بلطفها وايناسها ، المشاغل الجسام التي تنتظره لدى الباب ، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى الى منزله وحيدا غريبا ...

وحيداً ، وإن كان في عصمته «سودة بنت زمعة» تتفانى في خدمته وتقوم على شئون داره وبناته .

غريبا ، وان يكن مقيما في «مكة» : بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب .

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه «أبي بكر» كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه في فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض .

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ ، في عظمته وجلاله ومهابته ووقاره ، يرتاح اليها ويأنس الى صحبتها ويجد في عالمها المرح ما يجذبه اليه ، حيث يشاركها لهوها في بساطة حلوة وألفة حبيبة .

وازدهاها «ألا يخطئ رسول الله ﷺ ، أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، اما بكرة واما عشية» [1] .

---

(١) السيرة : ٢/١٢٨ وعيون الأثر ١/١٨٢ من طريق البخاري.

وذات يوم – وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة الى المدينة مهاجرين ، فلم يتخلف مع الرسول الا من حبس أو فتن ، غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب – علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت «عائشة» في فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة .

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت في لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز.

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحبة ، فما لمح «أبو بكر» شخص النبي ﷺ قريبا من الدار في تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

«ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة الا لأمر حدث» .

فلما دخل تأخر له «أبو بكر» عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت «عائشة» أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها «أسماء» ، ووقفتا خاشعتين ترقبان...

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من في الحجرة :

«أخرج عني مَن عندك !»

قال الصديق : يا رسول الله ، انما هما ابنتاي...

ثم أضاف مستفسرا في قلق : وما ذاك فداك أبي وأمي ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

«قد أُذِنَ لي في الخروج والهجرة ...»

فهتف الصديق : الصحبة يا رسول الله... الصحبة ! [1]

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول في الهجرة فيقول له :

«لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ! »

فيطمع في أن يكونه...

وتذاكر الصاحبان – على مسمع من عائشة وأسماء – ما كان من غيظ قريش «حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا في دار الندوة – وهي دار قصي ابن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا الا فيها – يتشاورون فيما يصنعون في أمر الرسول...

وكان فيهم عتبة بن ربيعة – أبو هند – وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدي ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن حزام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم ممن لا يعد من قريش .

واستقروا آخر الأمر على رأي لأبي جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيباً ، فيعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا الى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ! [2] .

---

(١) السيرة : ١٢٩/٢ والنقل منها . وحديث الهجرة مخرج في الصحيحين عن السيدة عائشة ، وابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) ابن هشام ، السيرة : ١٢٤/٢ ، ١٢٦ ، تاريخ الطبري : ٢٤٣/٢ ، عيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق .

وأذن لرسول الله في الهجرة ، واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست «عائشة» ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك ، وتطلعت الى الرسول الحبيب ثم الى أبيها ، فما راعها الا أن رأته يبكي من الفرح .

وما شعرت قط – في سنها الغضة – قبل اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ [١] .

* * *

وبدأ التأهب لرحيل عاجل...

بعث «أبو بكر» يدعو إليه «عبد الله بن أُريقط» – وكان دليلا ثقة ، خبيرا بمجاهل الطريق – فدفع اليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت .

ودعا الرسول اليه ابن عمه «علي بن أبي طالب» فأسر اليه النبأ الخطير، ثم استخلفه بمكة ليؤدي عنه ودائع كانت عنده للناس .

فلما حانت ساعة الرحيل : وقف الرسول على مرتفع هناك ببيت أبي بكر ، فرنا إلى «البيت العتيق» وقتا ، ثم أشرف على «أم القرى» وقال :

«والله إنكَ لأَحبُّ أرضِ الله اليَّ ، وانك لأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت» [٢] .

ثم استدار فنظر الى «عائشة» وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا ، وقد أدخلها الفراق المفاجئ السريع ، فما درت أفي يقظة هي أم تلك رؤيا منام...

وتسلل الصاحبان من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هي كل ما بقي له ولأهله من مال ، ثم انطلقا وما يعلم أحد في

---

(١) السيرة : ٢/٢٤٦ .

(٢) السيرة : ٢/١٢٩ ، والنقل منها ، وتاريخ الطبري : ٢/٢٤٧ .

«مكة» بخروجها الا «علي بن أبي طالب» وآل أبي بكر...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه في «جبل ثور» بأسفل مكة، وبقيت «عائشة» في الدار وحيدة قلقة.

أما أخوها «عبد الله» فانطلق إلى مجتمع البلدة، يتسمع ما يقول الناس...

وأما أختها «أسماء» فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار في سِتْر المساء.

وسمعت «عائشة» من أخيها «عبد الله» ان المشركين قد أحسُّوا خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم.

وكادت نفسها تطير شعاعا، لولا أن عصمها من اليأس ايمانها بالله ورسوله، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها الى مولاهم «عامر بن فهيرة» أن يرعى النهار في رعيان أهل مكة. فاذا أمسى أراح غنم أبي بكر على الغار!

وكانت مشغلة «عائشة» طول النهار أن تعد الدقائق وهي تمضي في بطء كأنها أعوام، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد. فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها «أسماء» لرحلتها المسائية، حملتها «عائشة» تحياتها ودعواتها للراحلين العزيزين، ثم وقفت تحدق في الطريق مترقبة عودة «أسماء» وقلبها يخفق في لهفة وقلق.

وتعود «أسماء» فتثب اليها عائشة معانقة، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب، واليد التي صافحتهما، والأذن التي سمعت صوتهما، ثم تجلس اليها لتسمع منها ما رأت من حالهما...

وتحدثها «أسماء» عن مشقة الاقامة في الغار، وعما كان من حزن أبي بكر حين رأى الرسول في ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة، فقال:

«ان قُتِلتُ فانما أنا رجل واحد. وان قُتِلتَ أنت هلكت الأمة».

فيذهب الرسول عنه الخوف بقوله:

«لا تحزن ان الله معنا».

وتظل «عائشة» تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة، حتى ينال منها الجهد والسهد، فتستسلم عيناها للغمض، وتحوم روحها حول الغار القريب، مأوى أعز من لها في الوجود.

ومر اليوم الثاني يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه، ثم حان المساء وتسللت «أسماء» خفية تحمل الزاد، فلما عادت قصت على «عائشة» كيف أن المطاردين بلغوا الغار، وتلبثوا عنده برهة، بل هموا بالنزول إليه، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه!

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون في اقتحام الغار، فقال للرسول:

– لو أن أحدهم نظر الى قدمه لرآنا...

فكان جواب الرسول:

– ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟! [1]

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة، وقفت «عائشة» في مرقبها اثر نهار مشحون بالقلق، ترصد الطريق... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت، وهي مرهفة الحواس تحدق في غسق الدجى لعلها تلمح شخص «أسماء»، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها، لعل هواء الليل يحمل اليها حسا من خطوات بعيدة!

---

(١) من حديث الهجرة في الصحيحين والسيرة – والنقل منها – ورواه ابن سيد الناس بسنده إلى: أنس بن مالك وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، رضي الله عنهم (عيون ١/١٨٢).

ومضى وهن من الليل وهي في وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت «أسماء» أخيرا تسري على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس .

وجمّد القلق حركة «عائشة» ، فوقفت حيث هي ، تحدق في نطاق «أسماء» الذي عادت به من رحلتها ممزقا . قد غاب شِقٌّ منه !

ورحمتها «أسماء» فعجلت لها بنبأ خروجها سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها ، وأقبلت تحدث «عائشة» عما كان :

في هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر . والتي اختيرت ليبدأ بها التاريخ العربي ، جاء الدليل ، عبد الله بن أريقط البكري ، يسوق الراحلتين اللتين أودعها اياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج الرسول وصاحبه ، وجاءت «أسماء» بطعامهما في سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة الى الرحل ، فحلّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر .

ونظر «أبو بكر» الى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها الى الرسول قائلاً : «اركب ... فداك أبي وأمي» ...

فركب الرسول ، ثم ركب «أبو بكر» وأردف خلفه مولاه «عامر ابن فهيرة» ...

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا الى الجنوب في طريق غير مطروق ، ووقفت «أسماء» تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها الى بيت أبيها ، وهي توجس خيفة من تنبه المطاردين ...

وغابت «عائشة» عما حولها ، ومضت تسري بروحها في أثر الراحلين ، فما راعها الا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات

النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فاذا نفر من قريش – فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومي – يسألونها في غلظة :

«أين أبوك يا بنت أبي بكر؟»

أجابت : «لا أدري والله أين أبي ! »

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بأبيها منطلقا من الغار ، ساريا في مجاهل الفلاة ، الى حيث لا تدري أين بلغ به سراه في صحبة النبي ﷺ .

فلم تشعر الا ويد «أبي جهل» ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ! (١)

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون ويتوعدون...

* * *

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث الا عن تلك المطاردة الشرسة العنيدة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جُنَّ خوفها أن ينجو بدعوته الى حيث يغدو مطمئنا وما لها اليه من سبيل .

ونجا ﷺ ، وصاحبه في الغار .

وتضاربت الأنباء في وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن أتباع محمد هناك يخرجون اذا صلوا الصبح الى ظاهر المدينة منتظرين ، فما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال...

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود : يا بني قيلة ، هذا جدكم قد جاء .

---

(١) السيرة ١٣٢/٢ ، وتاريخ الطبري : ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء في الاستيعاب بسند ابن عبد البر ، وفي الإصابة من طريق مسلم وابن سعد .

فخرجوا مسرعين ليروا النبي ﷺ في ظل شجرة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثرهم لم يكن رآهما قبل ذلك، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما النبي ﷺ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثاني فأظله بردائه، فعرفوه[١].

وسرى النبأ في أنحاء «يثرب» وتعالى الهتاف من كل مكان، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية في شوق ولهفة الى حيث تلقى المهاجر العظيم، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم، تشق أجواز الفضاء!

وعرفت «عائشة» مكان الحبيب...

وكذلك عرفت قريش، حين لم تعد تجديها معرفة، وجاء دورها لتنتظر في خوف وذعر ماذا يأتي به الغد...

انكمشت في ذلة، تجرع كأس الهوان، أنْ أعجزها الظفر بمهاجرٍ فرد، خرج من «مكة» وليس معه غير صاحب واحد، ودليل غير مسلم. ومولى تابع...

وأرهف التاريخ سمعه، يبدأ بهذه الهجرة الى يثرب كتابا جديداً في تاريخ الانسانية، ويبدأ بها ليثرب نفسها، عهدا جديدا مباركا، ومجدا خالدا على الدهر.

---

(١) انظر نسب «قيلة» أم الانصار الأوس والخزرج، في جمهرة أنساب العرب (٣١٢ – ٣٤٧) وفي «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» للسمهودي ص ٨: ١٥٦ ط ١٩٥٥.

العروس

بعد أن استقر ﷺ في دار هجرته ، بعث «زيد بن حارثة» إلى مكة ليصحب بنات الرسول إليها ، ومعه رسالة من «أبي بكر» الى ابنه عبد الله ، يطلب اليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته «أم رومان» ، وابنتيه «أسماء ، وعائشة» وكان مع زيد «أبو رافع» مولى النبي ﷺ .

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون مدينة الرسول ، وما تكاد الدنيا تسع «عائشة» من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت «أم رومان» مذعورة :

«وابنتاه ، واعروساه !» (١)

وأسرع عبد الله بن أبي بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، وأبو رافع ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأعزاء .

* * *

وفي «المدينة» كان ﷺ يهيّئ داراً لعائشة .

أقام ﷺ في «قباء» أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد في الاسلام ، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقباء ، في مربد هناك لكلثوم بن هِدْم الانصاري . (٢)

وركب ناقته «القصواء» يوم جمعة ، فأدركته صلاتها في «بني سالم بن عوف»

---

(١) تاريخ الطبري : حوادث الهجرة – والاستيعاب والإصابة ، في ترجمة أم رومان .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٣٩/٢ – وتاريخ الطبري ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي : ٢٥٠/١ .

فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحي من أحياء يثرب خرج اليه رجاله مرحبين داعين :

«هلم الينا يا رسول الله ، الى العدد والعدة والمنعة» .

فيجيب شاكرا :

«خلوا سبيل ناقتي» حتى انتهت إلى باب «أبي أيوب الأنصاري» وفيه نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه ...[1]

وتنافس المهاجرون والأنصار في البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض .

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد .

وفي واحد من هذه البيوت أقامت «سودة بنت زمعة» ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على خدمة النبي ﷺ ، وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ...

أما «رقية» فكانت مع زوجها «عثمان بن عفان» حيث نزل بالمدينة .

وأما «زينب» فكانت «بمكة» مع زوجها «أبي العاص بن الربيع» ابن خالتها هالة ، وكان لا يزال مشركا ، لم يفرق بينهما الاسلام بعد ...

* * *

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته ، واستقر المسلمون في دار الهجرة واطمأن بهم المقام ، آمنين من اضطهاد عدوهم ، تحدث «أبو بكر» بعد الهجرة بأشهر معدودات ، الى محمد ﷺ في اتمام الزواج الذي عقده بمكة منذ ثلاث سنين .

---

(١) السيرة ١٣٩/٢ ، ووفاء الوفا : ٢٥٦/١ .

فلبى رسول الله راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار الى منزل صهره الصديق ، حيث كان ينزل بأهله ، في بني الخزرج .

وتصف «عائشة» يوم عرسها فتقول : «جاء رسول الله بيتنا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتني ثم سوت شعري ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب ، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي ، ثم أدخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا ، فأجلستني في حجره وقالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك [١] .

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسول الله في بيتي ، ما نُحرت عليَّ جزور ولا ذُبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله» .

وحمل اليها كذلك قدح من لبن ، شرب الرسول منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه ...»

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق ، مشرب بحمرة . وقد انتقلت الى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض الا الحصير . وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر... [٢] .

وفي هذا البيت البسيط المتواضع بدأت «عائشة» حياة زوجية حافلة ، ستظل

---

(١) السمط الثمين ص ٣٢ — وتاريخ الطبري : ١٧٦/٣ ووفاء الوفا : ٢٦٠/١ ونحوه ، بلفظ مقارب ، في صحيح مسلم : كتاب النكاح ، ح (١٤٤٢) .

(٢) السمهودي : وفاء الوفا ٤٥٩/٢ : ٤٦١ وانظر في صحيح مسلم ، الحديثين ٢٠٨٢ ، ٢٤٣٨ .

حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق في حياة الرسول والاسلام.

كانت صغيرة السن ، أو طفلة – كما يحلو لذوي الهوى أن ينعتوها . وقال المستشرق بودلي : «منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبي بكر... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه دور النبي الملحقة بالمسجد...»[1] .

وأدق من هذا أن يقال ان «عائشة» قد اكتمل نموها في هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عيني الرسول من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب[2] الى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة في مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي !»

وتكره أن تلقى امرأة زوجها في كآبة الحداد فتروي الحديث :

«لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج !»

* * *

ولم يكن وجود «سودة» على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذي أحبته «عائشة» بكل كيانها ، يشغل بالها في كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط ألا مكان لسودة في قلب الزوج ، وانما الذي كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذي ظفرت به «خديجة» قبلها من زوجها ﷺ ، وتلك المكانة التي احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه نحو ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ،

---

(١) بودلي : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية.

(٢) المسند : جـ ٦ ، صحيح البخاري ١٨٢/٣٠ ط الشرقية.

وهي راقدة هنالك بعيدا تحت ثرى مكة ، فما تستطيع «عائشة» أن تشتفي منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتيّ النضير ، أو تفاخرها بأنها زُفَّت إلى الرسول ﷺ بكرا لم تعرف قط رجلا غيره.

وحاولت «عائشة» أن تتجاهل هذه الضرة التي ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا. ذلك أن طيف «خديجة» بقي ماثلا أبدا أمام عيني زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها في مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه.

وزاد في قسوة الموقف أن الشهور مضت والسنون ، و«عائشة» لا تنجب لزوجها ولدا ، على حين ولدتْ له «تلك العجوز من قريش» – كما كانت تصفها – البنين والبنات [1].

وكانت عائشة تعرف في زوجها ، وفي رجال قومها جميعا ، ذلك الحب القوي للابناء ، والحرص على الانجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج – الذي أحبته جهد الحب – ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف هذا الزوج ومحبته ، وما يأخذها به ايمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه.

وكانت بحيث تجد في بنات محمد – زوجها الحبيب – ما يلطف من لهفتها على الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكنْ يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها «خديجة» حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هي «خديجة» بلحمها ودمها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها في كل آن بما كتب عليها من حرمان.

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء اخوتها من تفيض عليه عواطف أمومتها

---

(١) في ترجمتها بالإصابة ، قال ابن حجر : «فقيل إنها ولدت من النبي ﷺ ولدا فمات طفلا . ولا يثبت هذا» وفيها : «وذكر أبو سعيد الأعرابي في معجمه بسند ضعيف جدا ، أنها أسقطت من النبي ﷺ ، سقطاً».

المحرومة كي لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء «عبد الله بن الزبير» منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : «أم عبد الله»[1] . وحين مات أخوها «عبد الرحمن» ضمت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

«فما رأيت والدة قط أبر منها» .

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع في قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما ظفرت به من حبه وتدليله ، وإيثاره ...[2] .

---

(١) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ في الكنية ، فقال لها : اكتني بابنك عبد الله بن الزبير.

(٢) انظر مناقبها في صحيح البخاري ، وفضائلها في صحيح مسلم.

الضرائر

وإذ هي سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها . آملة أن تستطيع به – ولو بعد حين – تناسي ضرتها التي ماتت ، فوجئت بزوج جديدة تدخل بيت النبي ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة «سودة» ، وتشاركها في حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

ومَن الزوج الجديدة؟

إنها «حفصة» بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله الاسلام به !

وروع «عائشة» أن يتزوج «محمد» ﷺ – عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت في الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها ومجد أبوتها ، وحبُّ الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المرير الذي لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد «حفصة» زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة . . .

كانت فيهن «زينب بنت جحش» الشابة الجميلة ، و«أم سلمة بنت أبي أمية زاد الركب» ، الحسناء الأبية المترفعة ، و«جويرية بنت الحارث» التي تأخذ العين بملاحتها ، و«صفية بنت حيي» سليلة اليهود ، الناعمة الساحرة ، و«أم حبيبة» بنت أبي سفيان زعيم مكة وقائد جيشها . . .

ثم كانت هناك «مارية» المصرية الجذابة ، أم ابراهيم بن محمد.

وريحانة بنت عمرو : حسناء بني قريظة ، لم يتزوجها الرسول ، لكنها أقامت في مِلْكِه ما عاش .

وكان هذا بحيث يجعل «عائشة» تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام، لكن يخطئ من يزعم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن «عائشة» استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت في كنيتها بأم عبد الله، أو في أمومتها للمؤمنين جميعا، ما يطفئ شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب، عزّ مثله في الأزواج.

ولم تدر «عائشة» أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم، فقد كانت تعرف – كما يعرف سواها – أن النبي ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة، وان لم تبرأ بشريته من رغبة.

وكانت تعلم – ويعلم الناس جميعا – ان عائشة هي الزوجة الحبيبة المفضلة، أحظاهن عنده ﷺ.

فهل تسكن عن رضى واستسلام؟

كلا، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها في قلب الرسول مهما يكلفها الأمر، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه.

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يتجرد من بشريته ولا يحمل «عائشة» أو غيرها من نسائه على التجرد منها.

فلتستجب «عائشة» لفطرتها دون كبت أو قهر، ولتكن لنسائه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية، ولو جمحت بهن الغيرة، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا.

* * *

وكانت «عائشة» بينهن أشدهن غيرة عليه، ونضالا في سبيل الاستئثار بحبه.

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد «خديجة»، وأنها وحدها التي تزوجها بكرا، وأنها «عائشة بنت أبي بكر».

وقد نظرت الى ضرائرها تقيس نفسها اليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف ، لتعرف من أين تأخذهن .

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل «سودة بنت زمعة» ، و«زينب بنت خزيمة الهلالية» التي لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات .

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن «فاطمة بنت الرسول» التي أرادت لها «عائشة» منذ جاءت بيت محمد ، أن تكون لها ضرة وخصما .

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر في ميدان المنافسة ، فتوددت في شجاعة ولباقة الى «حفصة بنت عمر»[1] متخذة من تقاربهما في الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد .

واستجابت «حفصة» لهذا التودد وقد سرَّها أن تؤثرها «حبيبة الرسول» ، بالمودة ، وأن تعترف بأن بنت عمر ، أقرب نساء النبي إلى بنت أبي بكر ...

واتخذت «عائشة» من «حفصة» موضع سرها منذ سمعت بزواج الرسول من «أم سلمة» فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس ...

وهونت «حفصة» من خطر «أم سلمة» فإنها على جمالها كبيرة السن ، وإن الجمال ليذبل سريعا في مثل سنها ، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق ...

وفعلت عائشة ...

ادخرت غيرتها للشابة القرشية الحسناء «زينب بنت جحش» وتأهبت لها قبل أن

---

(١) في حديث السيدة عائشة عن حزب النساء ، أن حزبا كان فيه حفصة وسودة وصفية والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الازواج رضي الله عنهن انظر السمط الثمين ص ٣٩ .

تجيء ، فما إن أعلن النبي ﷺ ما نزل عليه من الوحي في زواجه من بنت عمته ، حتى قالت عائشة في غيرة وغضب :

«ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[1].

وراحت «عائشة» – تؤازرها حفصة – ترقب الزوجة الجديدة وتحصي الدقائق والساعات التي يقضيها الرسول معها ، فلما رأته يطيل المكث لديها ، فكرت في حيلة تصرفه ﷺ عنها .

وأشركت معها ، حفصة وسودة ، أيتهن دخل الرسول عليها إثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له :

«أكلت مغافير؟»[1]

والمغافير ثمر حلو كريه الرائحة ، وكان عليه الصلاة والسلام لا يطيق الرائحة الكريهة .

وجاء الرسول «عائشة» فتشممت أنفاسه وقالت : «اني أشم رائحة مغافير، أكلت مغافير؟»

وكذلك قالت حفصة ...

ولما مر بسودة سألته مثل ذلك فقال : «لا».

قالت : فما هذه الريح؟

قال : «سقتني زينب شربة من عسل».

فقالت سودة بلهجة الخبيرة بمراعي البادية :

(١) ذكرت رواية أخرى في كلمتها هذه. انظر السمط الثمين ٨٢.

(٢ ، ٣) السمط الثمين : ٨٠ ، ٨١ وفي رواية ان التي سقته شربة العسل هي السيدة حفصة والحديث مخرج في الصحيحين ، بروايتيه .

«رعَتْ نحلُه العرفطَ».

والعرفط: الشجر الذي يثمر المعافير.

كان من النبي ﷺ إلا أن حرم شرب العسل عند «زينب» من يومه.

وأحست «سودة» ندما فقالت لصاحبتيها: «سبحان الله! والله لقد حرمناه!»(٢).

فنظرت إليها عائشة، أن اسكتي!

* * *

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن «عائشة» حينا عن أم سلمة وزينب، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبي إليه بعدها...

واحدى هؤلاء الوافدات من كندة، وثانية من مصر.

أما الأولى فكانت «أسماء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية» التي أحست «عائشة» خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها، وقدرت أنها اذا لم تحل بينها وبين زوجها الرسول، فسوف تكلفها من أمرها عسرا.

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج!

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها!

دعت اليها حفصة، وأخرى ممن يحرصن على ارضائها، فقالت لها:

«قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا».

واتفقن على خطة موحدة: أقبلن على العروس مهنئات، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضا الزوج العظيم ومحبته، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله إذا ما دخل عليها!

وفعلت المسكينة !

لم تكد تراه مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله ، وفي حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

«لقد عُذت بمعاذ» ...

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تُمتّع وتلحق بأهلها [1] .

فبعثت اليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام الا أن يبتسم ويقول :

«انهن صواحب يوسف ، وان كيدهن عظيم !»

وبقي عند كلمته ، فلم يمسك تلك التي عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

* * *

أما «مارية» المصرية ، فلعل «عائشة» لم تأبه لها أول الأمر ، اذ كانت أمة قبطية أجنبية وضعها الرق في منزل دون منازل أمهات المؤمنين.

وربما استكثرت «عائشة» عليها أن تعدها منافسة لها ، وهي التي تعيش خارج بيت النبي.

لكن «مارية» لم تكد تحمل من المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حتى هاجت غيرة «عائشة» وغيظها ، فبدأت تكيد لها ، والرسول يحاول أن يحميها من كيد الحبيبة

---

(١) اختلفت الروايات في اسم التي استعاذت بالله عندما دخل عليها الرسول ، فقيل هي أسماء بنت النعمان ، وقيل هي ابنة عم لها من كندة ، كذلك -- السيرة ٢٩٧/٤ . وفي الطبري أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) وانظر : المحبر لابن حبيب (٩٤) وعيون الأثر (٣١٠/٢).

المدللة بمكانتها، لكن الأمر خرج من يده ذات يوم: جاءت «مارية» تلتمس لقاءه في شأن لها، فخلا بها في بيت حفصة التي كانت اذ ذاك تزور أباها. فلما عادت «حفصة» ألفت الستر مسدلا وعلمت أن «مارية» هناك، فأقامت تنتظر على أحر من الجمر، حتى إذا انصرفت «مارية» دخلت «حفصة» على الرسول باكية مقهورة، ولم تهدأ حتى حرم الرسول «مارية» على نفسه، موصيا «حفصة» بكتمان ما كان [1].

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة، فكأنما أشعلت فيها النار.

ولجت عائشة في غيرتها، والنساء يظاهرنها على النبي ﷺ، غيظا من «مارية» التي حملت دونهن من رسول الله، وترفق ﷺ بهن ما استطاع، مقدرا بواعث هذا التظاهر، لكنهن تمادين في اللجاج إلى حد الشطط، مستمرئات عطف الرسول ورفقه بهن...

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك العبث النسوي المسرف، ولا كان يستطيع أن يرخي لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل، فاعتزلهن جميعا في صرامة لم يألفنها، وأعلن في حزم أنه منقطع عنهن، منصرف عن مؤمراتهن الصغيرة إلى شواغله الكبار...

وسرى الهمس بين المسلمين أن النبي طلق نساءه، وانكمشت المتظاهرات في بيت النبي حزينات نادمات، فقد جاوز الأمر ما قدّرن، وما لهن من عاصم يقيهن سوء المصير، إذا لم تدركهن رحمة الله وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام.

على أن «عائشة» – قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات -- لم تفزع لغضب رسول الله، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة. وكان قلبها يتمزق، كلما تمثلت الحبيب

---

(١) تفسير الطبري: سورة التحريم. والسمط ٨٥ وفي رواية أن آيات التحريم نزلت في قصة العسل والمغافير، ننقلها فيما يلي.

يأوي إلى خزانة له ذات مشربة [١] ، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه «رباحاً» على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، وتنفض عنه غبار المعركة ، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح .

ومضى شهر بأكمله في شغل عنهن ، و«عائشة» في شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم في عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته في موضوع نسائه ، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] .

* * *

ولكن النبي لم يطلق نساءه . ولطف الله بهن فاكتفى بانذارهن إن لم يتُبن فعسى ربه إن طلقهن ، أن يبدله أزواجا خيرا منهن ! [٢]

وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين إن النبي ﷺ عائد إلى بيته ، فوقفن بأبوابهن في لهفة يلتمسن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله ، على حين بقيت «عائشة» داخل مخدعها تستعد للقاء الحبيب العائد ، إذ كانت تعرف عن يقين أن اليها أولَ المطاف !

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها . ولاذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة في عتاب رقيق :

«بأبي أنت وأمي يا نبي الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبتَ عليَّ» .

وإذ أقبل عليها مصغيا . استطردت تقول في دلال ودعابة حلوة :

«أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين ؟»

---

(١) انظر وصف المشربة التي اعتزل فيها الرسول نساءه ، بكتاب (وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى) للسمهودي : ٤٦٣/٢

(٢) سورة التحريم ويأتي حديث عمر ، في مبحث ابنته حفصة .

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقد سره ان يعرف انها كانت تحصي ليالي الفراق عداً...

وأجابها بأن شهرهما ذاك ، تسع وعشرون ليلة !

* * *

ونجت «عائشة» من محنة الهجر، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع...

تلك كانت محنة الإفك ، ننقلها فيما يلي ، من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

محنة الإفك

حدث ذلك في نحو السنة السادسة للهجرة ، بعد أن تزوج ﷺ «زينب بنت جحش» . . .

وكان عليه الصلاة والسلام يتأهب لغزو بني المصطلق ، فأقرع بين نسائه على عادته كلما خرج في سفر أو غزوة ، فخرج سهم «عائشة» [1]

وانطلقت في صحبته سعيدة هانئة .

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير الى «المدينة» التي كانت اذ ذاك تهزج بأغاني النصر...

وفي الطريق — قريبا من المدينة — أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا .

وبلغ الركب المدينة في مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين الى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج في رفق ، فاذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم في الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ...

حتى بدت من بعيد ، تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه «صفوان بن المعطل السلمي» .

---

(١) تاريخ الطبري : ٦٧/٣ – والسيرة ٣١٠/٣ وانظر طبقات ابن سعد : ٤٦/٢ ط ليدن.

واطمأن الرسول أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئاً .

قالت : (١)

«خرجت لبعض حاجتي ، قبل أن يؤذَّن في الناس بالرحيل ، وفي عنقي عقد لي فيه جزع «ظفار» — مدينة باليمن — فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري . فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل ، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم — وأنا بعيدة — فرحلوا بعيري وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه — إذ كنت خفيفة لم يُثقلني اللحم — فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكُّوا أني فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ...

«فتلففت بجلبابي ، ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت ان لو قد افتُقدتُ لَرُجع اليَّ . فوالله اني لمضطجعة ، اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ — وقد كان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب — فلما رآني قال :

«إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ ! ما خلَّفكِ يرحمك الله؟ !

فما كلمته ... ثم قرب البعير فقال : اركبي .

واستأخر عني ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقِدتُ ، حتى أصبحت ونزل الناس ، وطلع الرجل يقود بي » .

وأوت «عائشة» إلى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام ! ذلك أن قوما

(١) حديث الإفك مروي بتمامه في الصحيحين وكتب السنن ، وفي طبقات ابن سعد والسيرة الهشامية عن ابن إسحاق — والنقل منها ، (٣/٣) وعيون الأثر (٢/٩٦ - ١٠٣) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهري .

من اليهود والمنافقين، على رأسهم «عبد الله بن أبيّ بن سلول» - الذي ما برئ من حقده على الرسول وما فتئ يكيد له - تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات، ليشفوا وترهم وأحقادهم...

وانتقل حديث الإفك من دار «ابن سلول»، ومن لفّ لفه، إلى أحياء المدينة، وردده ناس من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت الأنصاري» شاعر النبي ﷺ، و«مسطح بن أثاثة بل عباد» قريب أبي بكر وموضع بره، و«حمنة بنت جحش»، ابنة عمة النبي وأخت زوجته زينب!..

وبلغ الحديث أذني محمد ﷺ، كما بلغ مسامع أبي بكر وأم رومان فصكها صكا! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه «عائشة» بالشائعة الرهيبة، إذ كانت منذ عادت من غزوة بني المصطلق، معتلة تشتكي شكوى شديدة، فظلت لا تدري ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عودها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه، فأمست هذه المرة ولا حظَّ لها من ذلك اللطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين الى حين، وعندها أمها تمرضها فيسأل:

«كيف تيكم؟»، لا يزيد على ذلك!

ولم تشأ أن تسأله عما يريبها من جفائه، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلا، فتماسكت متجلدة، وهي تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التي غشيت دنياها.

فتقول «عائشة»:

«حتى وجدتُ في نفسي فقلت، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: يا رسول الله، لو أذنت لي فانتقلتُ إلى بيت أمي فمرضتني؟ قال: لا عليك.

«فانتقلت إلى أمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة...

«فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي «أم مسطح» بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف – وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم ، خالة أبي بكر– فوالله انها لتمشي معي اذ عثرت في مرطها فقالت :

تَعِسَ مِسْطَح !

قلت : بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا !

فقالت : أو ما بلغك الخبر يابنت أبي بكر؟

قلت : وما الخبر؟

قالت : نعم والله ، لقد كان...

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي ، ورجعت فمازلت أبكي حتى ظننت إن البكاء سيصدع كبدي ، وقلت لأمي :

– يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟

قالت : أي بنية ! خفِّضي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن وكثر الناس عليها ! »

لكن «عائشة» باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

* * *

وبعيدا عنها كان الرسول يعاني مثل الذي تعانيه : قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم فادح ، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء.

وقد قام في الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ؟.. والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتي إلا وهو معي».

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم في محنته وعذابه ، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصواتهم في طلب الانتقام والتأديب ، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر[1] .

وتمضي عائشة في وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليَّ ، فدعا «على بن أبي طالب وأسامة بن يزيد» فاستشارهما .

فأما أسامة فأثنى عليَّ خيرا وقال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها الا خيرا ، وهذا الكذبُ والباطل ...

وأما «علي» فإنه قال : يا رسول الله ، ان النساء لكثير، وانك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فانها ستصدقك .

« فدعا رسول الله ﷺ جاريتي «بريرة» ليسألها : فقام إليها «على بن أبي طالب» فضربها فضربها ضرباً وهو يقول :

– اصدقي رسول الله ﷺ .

فتقول « بريرة » :

والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله ! »

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد .

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبي بكر، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكي ، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها في صمت وأسى .

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك ، جلس ﷺ يحدث عائشة ، قال :

«يا عائشة ، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فاتقي الله . وإن كنت قد قارفتِ سوءا مما يقول الناس فتوبي إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده» .

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت . وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، وإذ ذاك تلفتت إلى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ .

واذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها : ألا تجيبان؟

قالا معا بصوت تخنقه العبرات : والله ما ندري بم نجيب !

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل في كيانها ، ثم اتجهت إلى زوجها الرسول تقول في إصرار :

«والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدا ، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أني بريئة ، لأقولَنَّ ما لم يكن . ولئن أنا أنكرت ما يقولون ، لا تصدقونني» .

وحاولت أن تتذكر اسم «يعقوب» لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ثم صمتت (٢) ...

فلم يبرح ﷺ مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحي ، فسُجي بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقاً وقلقا ، وأما هي فما فزعت ولا خافت ، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها .

ثم سُرِّي عن رسول الله ، ﷺ فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول :

(١ ، ٢) السمط الثمين ٦٧ – وتاريخ الطبري ٦٧/٣ .

«أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك ! »

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم ، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها ، فقالت عائشة في إباء : « والله لا أقوم إليه ، فإني لا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذي أنزل براءتي » .

ثم التفتت إلى أبيها ، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا ، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتني ! » فأجاب : « أي سماء تظللني وأي أرض تقلني إن قلت بما لا أعلم؟ »

وأما النبي ﷺ ، فرنا إليها في عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم ، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسَبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم ، لكلّ امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم * لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يَعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذي يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١١ — ١٩) .

ويأمره تعالى ، جَلِد الذين تقولوا بالفاحشة : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » النور : ٤

* * *

العُـرْوَةُ الوُثقَى

وعادت السيدة «عائشة» الى مكانها في البيت المحمدي، تحف بها هالة من آيات النور، نصرا إلٓهيّاً جعل براءتها من الإفك الأثيم، قرآنا يتعبد به المسلمون...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة، مزهوة بصباها ودلالها وحظوتها عند الحبيب، وتباهي ضرائرها قائلة:

«أية امرأة كانت أحظى عند زوج مني!»

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام:

«حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى».

عن عمرو بن العاص، قال: قلت لرسول الله ﷺ:

يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟

قال: «عائشة» قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها» قلت: ثم من؟

قال: «ثم عمر بن الخطاب...» فعدّ رجالا. (١)

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت:

قال لي رسول الله ﷺ: «إني لأعلم متى كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غَضْبَى» قلت: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أما إذا كنت راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد، وإذا كنتِ غضبى قلتِ: لا وربِّ إبراهيم». قلتُ: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمَك. (٢)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب (٢٠١/٢) ومسلم في كتاب الفضائل: ح (٢٣٨٤) والنقل من البخاري.

(٢) صحيح مسلم: باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٣٩) والنقل منه. وأخرجه البخاري في كتاب الغيرة (١٨٦/٢).

و«حديث أمّ زرع» مشهور، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن، وتعاهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئا. فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو أبويه، فلما جاء دور أخراهن «أم زرع» تحدثت عن زوجها «أبي زرع» فأثنت عليه أطيب الثناء. وأسهبت في وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته.

قالت السيدة عائشة بعد أن حكت خبرهن؛ قال لي رسول الله ﷺ:

«كنتُ لكِ كأبي زرع لأمّ زرع»[1]

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبي ﷺ، فيتحرّوْن بهداياهم يوم عائشة، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ»[2]. ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو في بيت عائشة، إلا أن الغيرة استفزتهن، فتشاورن في وضع حد لما يلقين من بنت أبي بكر.

وانتهى بهن الرأي إلى أن يلتمس من «السيدة فاطمة الزهراء» مخاطبة أبيها ﷺ في الأمر. واستجابت رضي الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت: يا أبي، ان نساءك أرسلنني اليك، وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقال لها، ﷺ: «أي بنية، ألستِ تحبين ما أحب؟»

قالت: بلى. قال: «فأحِبّي هذه».

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذي سمعت من أبيها ﷺ، وقالت: «والله لا أكلمه فيها أبداً»[3].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في باب فضل السيدة عائشة (ح: ٢٤٤٨).

وشرحه القاضي عياض في كتاب مفرد، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، ح (٢٤٤١) واللفظ منه. والسمط الثمين للمحب الطبري: ٤٠ والإصابة ٨/١٤٠.

(٣) صحيح مسلم، الفضائل: ح (٢ ٢٤).

وقد ظلت السيدة عائشة رضي الله عنها ، تبارك ما عاشت . الشهر الذي خطبها فيه النبي ﷺ ، وبنى بها فيه ، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلها في شوال ، وتقول :

«تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحْظَى مني؟» [1]

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان النبي ﷺ يوسع لها العذر فيقول :

«ويحها ، لو استطاعت ما فعلت !»

وقد يسألها : «أغِرتِ»؟

فتجيب : وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك؟ [2]

وصدقت «عائشة»...

ووَهِمَ الذين ادعوا تجردها من البشرية وترفعها عن أهواء حواء وبراءتها من فطرة الأنثى. كتبت السيدة الزميلة «الدكتورة زاهية قدورة» ، في رسالتها للدكتوراه عن «عائشة أم المؤمنين» : «إن الغيرة لم تكن لتتغلغل الى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل... وان الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الاسلامي من الافرنج أن يصفوها... ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن في ارضاء زوجهن رسول الله».

سبحان الله !

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب النكاح : ح (١٤٢٣).

(٢) صحيح مسلم : ح (٢٨١٥) والسمط الثمين : ٨٠.

وهل كان تحزبهن في قصة المغافير، وتظاهرهن ضد مارية، من صنع الفرنجة؟

أوكانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله إذا دخل عليها رسول الله ﷺ داخلَ ما تسميه الزميلة: الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل؟

أوكان اتفاقهن على مغاضبته ﷺ إذ خلا بمارية وهي حِلٌّ له، من بين هذه الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر؟

اللهم لا، وإنما كانت «عائشة» أنثى سليمة الفطرة، ينزع بها ميراثها العاطفي الى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة.

وما غيرتها المحتدمة العارمة – بعد هذا كله – الا مظهر حب عميق لرجلها الأوحد، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام، ورغبة لا تقاوم في الاستئثار به...

ونظلمها، ونظلم نبينا الكريم، اذا تكلفنا نفي هذه الغيرة عنها ووصفنا ما بينها وبين ضرائرها «بالاتفاق الرائع».

وما لها ألا يغار مثلها على مثله؟!

* * *

الوداع

كانت السنوات التي تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث...

والسيدة «عائشة» مع الرسول ﷺ تشهد أمجاده، وتتلقاه عائدا مظفرا من غزواته، وترقب دعوته وهي تنتشر وتمتد، كنور الفجر يغزو الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل.

ثم آن للبطل أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة،..

وآن للرسول البشر، أن يرجع إلى ربه، بعد أن أبلغ رسالته.

عاد من حجة الوداع سنة عشر الى «المدينة» فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة، فخرج إلى البقيع يحيي الراقدين هناك ويستغفر لهم.

فلما أصبح مر بعائشة في الغداة فوجدها تشكو صداعا وتئن متوجعة:

«وا رأساه!»

قال وقد بدأ يحس ألم المرض:

«بل أنا والله يا عائشة وا رأساه!»

فلما كررت الشكوى قال ملاطفا:

«وما ضرك لو مُت قبلي فقمتُ عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك؟»

ردّت وقد هاجت غيرتها:

«ليكن ذلك حظ غيري! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك، لقد رجعتَ الى

بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك»[1]

فأشرق وجهه ﷺ بابتسامة لطيفة، وسكن عنه الألم هونا ما، ثم قام يطوف بزوجاته، لكن الألم ما لبث أن عاوده واشتد عليه.

حتى إذا وصل في طوافه الى بيت «ميمونة» لم يعد يحتمل مغالبة ألمه، فنظر إلى زوجاته وقد اجتمعن حوله، ثم قال متسائلا:

«أين أنا غدا؟.. أين أنا بعد غد؟» استبطاءً ليوم عائشة فطابت نفوسهن بأن يمرض رسول الله حيث أحب، وقلن جميعا:

«يا رسول الله، قد وهبنا أيامنا لعائشة»[2]

قال عليه الصلاة والسلام:

«مُرُوا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالناس».

وانتقل إلى بيت الحبيبة، فسهرت عليه تمرضه وبودها لو تفتديه بالروح، وحانت لحظة الرحيل، ورأسه ﷺ في حجرها...

قالت عائشة تصف اللحظة الرهيبة:

«وجدت رسول الله ﷺ يثقل في حجري، فذهبت أنظر الى وجهه فاذا بصره قد شخص وهو يقول:

«بل الرفيق الأعلى من الجنة...».

قلت: خُيِّرتَ فاخترت والذي بعثك بالحق.

---

(1) السمط الثمين: 55 والسيرة: 4/292 - وتاريخ الطبري: 3/191.

(2) صحيح مسلم: ح (2443)، السيرة 4/292 والسمط الثمين: 55. وفي تاريخ الطبري أنه ﷺ استأذن نساءه ان يمرض في بيت عائشة، فاذن له «3/191»

وقُبض رسول الله بين سحري ونحري... فمن سفهي وحداثة سني انه ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي» [1]

* * *

وكادت تكون فتنة، عصم الله المسلمين منها حين ألهم «أبا بكر» أن يقف في المسلمين فيقول:

* أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت...

ثم يتلو فيهم قوله تعالى في كتابه المنزل على رسوله ﷺ:

«وما محمد إلا رسول قد خلتْ من قبله الرسل، أفئن مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عَقِبيه فلن يضرَّ الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين».

آل عمران: ١٤٤

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت، حتى تلاها «أبو بكر» يومئذ! [2]

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ في بيت «عائشة».

وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده...

* * *

(١) تاريخ الطبري: ١٦٧/٣ والنقل منه — ونحوه في صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ح (٢٤٤٤).

(٢) صحيح البخاري، مناقب أبي بكر (٢٠١/٢).

وعاشت «عائشة» لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة، والفقيهة الأولى في الإسلام.

قال الامام «الزهري»: لو جمع علم عائشة، الى علم جميع أزواج النبي ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل [١].

وقال هشام بن عروة عن أبيه: «ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة» [٢]

عاشت لتصحح رأي الناس في المرأة العربية، وتشارك في حياة الإسلام أعنف مشاركة، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التي صنعت التاريخ الإسلامي منذ مقتل «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، وتقود الجيوش لمحاربة «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه يوم الجمل.

ثم توفيت رضي الله عنها في السادسة والستين من عمرها، بعد أن تركت أعمق الآثار في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث، في الكتب الستة.

وكانت وفاتها – على الأرجح – ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين [٣]، وصلى عليها «أبو هريرة» ثم شيعت جنازتها في غسق الليل إلى البقيع – كما أوصت – على أضواء مشاعل من جريد مغموس في الزيت، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة، فلم تُرَ ليلةٌ أكثرَ ناسا منها.

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة

(١، ٢) الاستيعاب: ١٨٨٣/٤، والإصابة ١٤٠/٨.

(٣) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٥٨ هـ – والسمط الثمين ص ٨٢ – والاستيعاب: ١٨٨٥/٤.

وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذي احتدم أعواما في ذلك الكيان الرقيق اللطيف.

وفي (صحيح البخاري) أن عائشة رضي الله تعالى عنها أوصت عبد الله بن الزبير – ابن أختها أسماء – أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع [1].

ونزل معها الى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن ، وكلهم من رواة الحديث عنها [2].

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت في السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التي عاشتها ملء الحياة ، من الشهر المبارك ، شوال ، الذي شرفت فيه بالزواج من خير البشر ، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام...

---

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه ، في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودي : ٩١٣/٣ .

(٢) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة ، وتهذيب التهذيب : في ترجمتها رضي الله عنها .

(٤)

حفصة بنت عمر

حافظة المصحف الشريف

«... يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب الرسول ﷺ إياها. والله لقد علمتِ أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك»

عمر بن الخطاب

في (الصحيحين)

الأرملة الشابة

لم يشهد «بدرا» من بني سهم غير رجل واحد، هو[1] الصحابي الجليل «خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي»، وكان من أصحاب الهجرتين، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها، ثم إلى المدينة. وقد شهد «أحدا» كذلك، ثم مات بعدها في دار الهجرة، من جراحة أصابته في «أحد» وترك من ورائه أرملته «حفصة بنت عمر بن الخطاب».

وتألم «عمر» لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها.

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها ويخنق صباها ويبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته، ورأى ابنته في حزنها، فبدا له — بعد تفكير طويل — أن يختار لها زوجا، قد تأنس الى صحبته فتسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد...

ووقع اختياره على «أبي بكر بن قحافة» صفي الرسول وصهره، وصاحبه الصديق.

وارتاح للفكرة، فان أبا بكر في رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه، كفيل بأن يحتمل «حفصة» بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر.

وأرضاه أن يصهر الى أحب رجل الى رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر السيرة لابن هشام: ٣/٦، ٣٤١ وتاريخ الطبري: ٣/١٧٧ -- وترجمة خنيس في: طبقات ابن سعد، والاستيعاب، والإصابة. ومعها: وفاء الوفا: ٣/٩٠٠.

ويحرف اسم خنيس في طبعة الشرفية بالقاهرة ١٣٢٥، في ترجمة حفصة، بحصن. وانظره في نسب بني سهم في جمهرة الأنساب ١٥٦، والمحبر لابن حبيب ٨٣، ونسب قريش ٤٠٢.

ولم يتردد عمر، بل سعى من فوره إلى أبي بكر، فحدثه عن «حفصة» والصديق يصغي في عطف ومواساة.

ثم عرض عليه أن يتزوجها، وفي يقينه أن «أبا بكر» سيرحب بالشابة التقية، ابنة الرجل الذي أعز الله الإسلام به.

لكن «أبا بكر» أمسك لا يجيب!..

وانصرف «عمر» واجدا، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض «حفصة» بعد أن عرضها أبوها عليه.

وسارت به قدماه إلى بيت «عثمان بن عفان» وكانت زوجته السيدة «رقية بنت محمد» ﷺ قد مرضت بالحصبة – بعد عودتها من الحبشة – والمسلمون يلقون عدوهم في بدر، ثم ماتت بعد أن تم النصر للمؤمنين[1].

وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه «حفصة» وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله قد اختار لحفصة «عثمان» وهو تعالى، يعلم أي الرجلين أصلح للأرملة الشابة.

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما، جاءه بعدها فقال:

«ما أريد أن أتزوج اليوم!»[2].

فكاد «عمر» يتميز غيظا من قسوة الموقف، ثم ثار به الغضب، فانطلق الى الرسول يشكو صاحبيه...

أمِثلُ حفصة – في شبابها وتقواها وشرفها – تُرفَض؟

---

(١) انظر حديث السيدة رقية رضي الله عنها في كتابنا «بنات النبي» ﷺ.

(٢) هذه رواية الاستيعاب «١٨١١/٤» والإصابة ٥١/٨، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية في السمط الثمين ٨٣، أن عمر عرض حفصة على عثمان، ثم على أبي بكر. رضي الله عنهم.

ومن؟ من أبي بكر وعثمان ، صاحبي الرسول ﷺ وصهريه ، وأولى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا؟

واستأذن «عمر» على النبي ﷺ ، وما يملك نفسه من غضب وقهر، فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله في عطف ومودة عما يؤلمه...

ونفض «عمر» لدى النبي الكريم ما يرهقه ويقهره ، وكشف له عما كان من «أبي بكر بن أبي قحافة ، وعثمان بن عفان»...

فتبسم ﷺ وقال :

«يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانُ من هي خير من حفصة» (١)

وردَّد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟»

وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة . أيتزوج النبي ﷺ ، ابنته حفصة؟

ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه .

ونهض إلى الرسول يصافحه متهللاً، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته ، وإلى أبي بكر وعثمان ، وإلى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة .

وكان أبو بكر أول من لقيه ، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته ، فمد يده مهنئاً معتذراً يقول :

«لا تَجِدْ عليَّ يا عمر ، فان رسول الله ﷺ ، ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها» (٢)

(١ ، ٢) السمط الثمين ٨٣ -- والاستيعاب : ١٨١١/٤ ، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢

ومضى كلاهما إلى ابنته:

أبو بكر ليهون على «عائشة» من وقع الخبر.

وعمر ليبشر «حفصة» بأكرم زوج.

وباركت المدينة يد النبي ﷺ وهي تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة.

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من «أم كلثوم بنت محمد» في جمادى الآخرة، من السنة الثالثة للهجرة.

وتهيأ بيت النبي لاستقبال «حفصة» التي تزوجها الرسول في شهر شعبان، من تلك السنة على الأرجح [1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٩، الاستيعاب، الإصابة، وفاء الوفا للسمهودي: ٣/٩٠٠.

السر المذاع

جاءت العروس ، وفي البيت «سودة» و«عائشة» .

أما «سودة» فرحبت بها راضية ، وأما «عائشة» فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة ، وما فعل ذلك قط مع «خديجة» .

وضايقها ألا تجد في «حفصة» مغمزا ، فهي مَنْ هي ، شبابا وتقى ، وعزة نسب . . .

لقد كانت عائشة تزهو على سودة ،وخديجة من قبلها ، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة ، وحظ «حفصة» من هذين ، ليس بالذي ينكر أو يجحد .

و«عائشة» كانت تضيق بيوم «سودة» التي ما اكترثت لها عائشة كثيراً ، فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة؟

واحتارت ماذا تفعل ، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضي عمر ويباركه الإسلام والمسلمون .

وسكتت على مضض وغيرة ، إلى أن وفدت على بيت النبي أزواج جديدات ، فتناست «عائشة» ما كانت تجد من «حفصة» ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها اليها ، وأجدرهن بأن تقف معها في وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها اذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هي «عائشة» وقد سبقتها إلى بيت النبي ﷺ ، وإلى قلبه .

وربما جرح شعورها أن تعرف حب الرسول لعائشة ، لكنها حين تتابعت الضرائر ، وقفت دون تردد ، الى جانب بنت أبي بكر.

وكان «عمر» يرقب موقفها في قلق مبهم ، فيريبه هذا التقارب - غير الطبيعي - بين ابنته وبين بنت أبي بكر ، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية المدللة ، ويردها عن جموحها بمثل قوله :

«أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها؟»

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا؟ أجابت بأنه حق فصاح يزجرها :

- تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية ، لا يغرنَّك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها ، والله لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! »

ويمضي عن «حفصة» وفي حسابه أنه قد ردها الى ما ينبغي لها من خضوع ومجاملة ، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلَّة بشخصيتها ، لا ترى في منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها ، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس في طبعها . بل تركت نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها ، عليه الصلاة والسلام ، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها ، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبة إذا بدا لها وجه آخر فيما يقول. روى «ابن سعد» في حديث الحديبية وبيعة الرضوان ، أن الرسول ﷺ ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال : «لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها» قالت حفصة : «بلى يا رسول الله ! » فانتهرها فتلت الآية : «وإنْ منكم إلا واردها كان على ربك حتما

مقضيا». فقال النبي ﷺ، قال الله: «ثم ننجي الذين اتقوا وَنَذَرُ الظالمين فيها جثيا»[1].

ولعل إباءها هو الذي فرض عليها أن تداري غيرتها من «عائشة» وتحاول أن تلتمس في صحبة هذه الشابة المرحة، ومشاركتها في معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوي...

ويرخي لها النبي ﷺ ما استطاع، ويشفع لها عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته، وبنوتها لأعز صاحبين.

حتى خلا يوما بمارية في بيت «حفصة» فعاد جرحها يقطر دما، وتمثل لها أبوها يقول:

«والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولاي لطلقك!»

فلما انصرفت «مارية» دخلت «حفصة» حجرتها وقالت للمصطفى: «لقد رأيتُ من كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك!»

ثم استعبرت باكية...

ووقعت كلمتها من الرسول موقعا أليما، فما كان ليهين بنت عمر، وقد تزوجها تكريما لصاحبه.

وأقبل عليها يترضاها بأن أسرَّ إليها أن «مارية» حرام عليه. ثم أوصاها أن لا تحدث أحدا بما كان، ولتعتبره كأن لم يكن.

ورضيت «حفصة»...

وسعدت ليلتها بقرب الرسول وعطفه، حتى إذا مضى عنها الغداة ولمحت عائشة قريبة منها، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوي من سر، فنبأت به صاحبتها التي انتهزت

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢/٧٣ ط ليدن - والآيتان من سورة مريم: ٧١، ٧٢.

الفرصة السانحة ، لتنال من غريمتها «الأمة القبطية».

ولم تقدر «حفصة» وهي تذيع السر لعائشة ، عواقب هذا الإفشاء.

فهذا الحديث عن تحريمه ﷺ «مارية» على نفسه ، وإفشاء حفصة السر إلى عائشة وتظاهرهما على النبي ﷺ ، هو المتداول في كتب الفقه ، في سبب نزول سورة التحريم [١] .

وهو متداول أيضا في كتب التفسير. [٢]

على أن في الصحيحين ، أن آيات التحريم نزلت في تحريمه ﷺ شرب العسل على نفسه ، لما قالت له عائشة ومن معها : «أكلت مغافير؟» [٣]

والذي يعنينا هنا ، هو ما يتصل بحفصة وأبيها «عمر» فقد كانت هي التي نبأت بالسر الذي أوصاها الرسول ﷺ أن تكتمه ، فأشعلت النار من حيث لا تدري ولا تقدر.

فيقال إنه طلق «حفصة» فعلا ، وهو خبر يرويه «ابن حجر» من طرق شتى ، اتفقت على أن الرسول طلق حفصة تطليقة واحدة ، ثم ارتجعها...

وفي هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فتذهب رواية الى أن ذلك كان رحمة بعمر الذي حثا التراب على رأسه وقال : «ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها». فنزل جبريل من الغد على النبي ﷺ فقال : «إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر».

وفي رواية أخرى ، إن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال له :

«أرجع حفصة فانها صوامة قوامة ، وانها زوجتك في الجنة» [٤] .

---

(١) عن القاضي عياض ، في شرح صحيح مسلم على هامش : ١١٠٠/٢.

(٢) تفسير الطبري ، وكشاف الزمخشري ، والبحر المحيط لأبي حيان : سورة التحريم.

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيا اتفق عليه الشيخان : ١٢٦/٢.

(٤) الاصابة : ٥٢/٨ - وانظر معه الاستيعاب : ١٨١٢/٤ وعيون الأثر ٤٠٢/٢ والسمط ٨٥.

والراجح أن هذا الطلاق الرجعي قد كان قبل أن تستفحل ثورة «عائشة» ومن معها من نساء النبي ، فلما اعتزلهن الرسول ، كان من الطبيعي أن يكون إحساس «حفصة» بالندم أوفر من إحساس أمهات المؤمنين الأخريات ، وشعورها بالخطأ أفدح من شعورهن . فما كان لها – وهي التقية العابدة ، بنت عمر بن الخطاب – أن تذيع سرا ائتمنها عليه الرسول ﷺ ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان ، ولا كان لها أن تلقى ترضيته لها ، وإكرامه اياها ، بمثل ذاك الجحود والنكران.

وفي الإصابة :

«دخل عمر على ابنته وهي تبكي فقال :

– لعل رسول الله قد طلقك؟ إنه كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي ، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا».

وفي حديث عمر إلى ابن عباس ، بالصحيحين ، أنه خرج إلى المسجد فألفى المسلمين هناك ينكتون الحصا مطرقين ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه.

ولم يكن أحد قبيل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول فيهن منذ اعتزلهن . لكن «عمر» – وابنته هي السبب – لم يطق على ذلك صبرا ، بل قصد إلى المشربة التي اعتزل فيها النبي ﷺ ، وغلامه «رباح» قائم على عتبتها ، فاستأذن عمر في الدخول على الرسول ، وكرر النداء ، و«رباح» لا يجيب .

هنالك رفع «عمر» صوته وقال في ضراعة :

«يا رباح ، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ، فإني أظنه ظن أني جئت من أجل حفصة ... والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربن عنقها».

وبلغ صوته سمع الرسول فتأثر ، وأذن له فدخل ، وأجال بصره في الخزانة وبكى ... فقال النبي عليه الصلاة والسلام :

«ما يبكيك يا ابن الخطاب؟»

فأشار «عمر» الى الحصير الذي كان الرسول مضطجعا عليه وقد أثر في جنبه، والى قبضة من شعير ومثلها من قرظ، كانتا كل ما بالخزانة من طعام.

ثم أمسك عبرته وقال: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ ان كنتَ طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك...

فابتسم له الرسول، ورد اليه طمأنينته، فما طلق نساءه وإنما هجرهن شهرا...

ورُدَّت الروح إلى «عمر»، فاستأذن ونزل إلى المسجد.

فبشر المسلمين: «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه».

* * *

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فتلا فيهم قوله تعالى:

«يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذْ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبَّأها به قالت: من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما * وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات، ثيبات وأبكارا».

صدق الله العظيم — التحريم ١ — ٥

الوديعة الغالية

وعت نساء النبي هذا الدرس ، وثابت «حفصة» إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما .

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت في مؤامرة نسوية ببيت الرسول ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى كانت «حفصة» هي التي اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا — وفيهن عائشة — لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم .

ذلك ان «عمر» أشار على «أبي بكر : الخليفة الأول» أن يبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم في صحف شتى ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضي حفظته الأولون ، وقد استشهد منهم مئات في حروب الردة .

فاستجاب «أبو بكر» ، وجمع المصحف الكريم وأودعه عند أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» .

* * *

في أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة ، توفي أبو بكر الصديق ، أول الخلفاء الراشدين . وتولى الخلافة من بعده ، بعهدٍ منه ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره ، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده ...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة ، بالمقتل الفاجع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بطعنات من خنجر أبي لؤلؤة المجوسي ، في ليالي المحاق من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

وترك أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى من كبار الصحابة، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وفي عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة. ونُسِخَت من المصحف العثماني الإمام، نُسخ وُزِّعت على الأمصار.

* * *

بعد مقتل ذي النورين عثمان رضي الله عنه، في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، بويع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. وكانت الفتنة الكبرى التي خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين نقضوا البيعة، وحاربت معهم الإمام عليّ بن أبي طالب. وقد عزمت على السيدة حفصة في الخروج معها، فهمت بأن تستجيب لها، كالعهد بهما فيما مضى. لولا أن ردّها أخوها: «عبد الله بن عمر» عن الخروج في تلك الفتنة العمياء.

* * *

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامة صوامة، إلى أن توفيت في عهد معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية. وشيعتها المدينة إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن [(١)].

وبقي لها مع ذكراها أمّاً للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف، ما روت من الحديث عن النبي ﷺ، وعن أبيها عمر رضي الله عنهما. روى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة، في عدد من حفاظ التابعين...

---

(١) في سنة وفاتها خلاف، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين انظره في الطبقات والاستيعاب والإصابة، وفي عيون الأثر (٣٠٢/٢).

(٥)

زينب بنت خزيمة

أم المساكين

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم»

ابن إسحاق: في السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على دخول «حفصة» البيت المحمدي غيرُ وقت قصير، حين دخلته أرملة شهيد قرشي من المهاجرين الأولين، رابعة أمهات المؤمنين: «زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، الهلالية»

ويبدو أن قصر مقامها ببيت الرسول ﷺ، قد صرف عنها كتّاب السيرة ومؤرخي عصر المبعث، فلم يصل الينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف.

لم يختلفوا في نسبها من جهة أبيها، كما صرح ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، بعد سياق نسبها. وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها [١].

وأما من جهة أمها، فأغفلته جمهرة هذه المصادر. ونقل ابن عبد البر فيها قول أبي الحسن الجرجاني النسابة: «وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث – أم المؤمنين – لأمها» قال ابن عبد البر: «ولم أر ذلك لغيره، والله أعلم». وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر، ولم يعقب عليه.

وأقول: بل ذكره كذلك، النسابة «أبو جعفر ابن حبيب» في مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قِبَل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية. أمها: «هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة، الحميرية» وأخوات ميمونة لأبيها وأمها: أم الفضل لبابة الكبرى أم بني العباس بن عبد المطلب، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد، وعزة بنت الحارث... واختهن لأمهن: زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية. وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبي طالب، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم علي بن أبي طالب، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب...

---

(١) الطبقات الكبرى، ونساء الاستيعاب والإصابة. والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤، وتاريخ الطبري ١٧٩/٣، والمحبر لابن حبيب ٨٣، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢، والسمط الثمين ١١٢، وعيون الأثر ٣٠٢/٢.

«ولا يُعلم امرأة في العرب كانت أشرف أصهارا من هند بنت عوف، أم ميمونة وأخواتها». [1]

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبي ﷺ، والراجح – والله أعلم – أنها: كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب، فخلفه عليها أخوه عبيدة بن الحارث، استشهد رضي الله عنه في بدر، فخلفه عليها النبي ﷺ.

وهي رواية ابن حبيب في المحبر، والجرجاني النسابة – حكاه ابن عبد البر – وابن سيد الناس في عيون الأثر، والمحب الطبري في السمط، وأحد الأقوال في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة.

وقيل: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاه الطبري وابن عبد البر عن قتادة.

وفي السيرة الهشامية أنها كانت عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكانت قبله عند جهم بن عمرو بن الحارث الهلالي، وهو ابن عمها.

وفي قول رابع انها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد في أحد، فخلف عليها النبي ﷺ. حكاه ابن عبد البر – عن الزهري – وابن حجر في الإصابة:

ففي «الاصابة» انه عبد الله بن جحش، وقد استشهد «بأحد».

وعن «ابن الكلبي»: كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها، فخلفه عليها اخوه فقتل عنها ببدر، فخطبها رسول الله ﷺ.

وفي الطبري:

«وفي هذه السنة – الرابعة – تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال، في شهر رمضان... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها».

---

(١) المحبر: ١٠٥ ١٠٩ ومعه الإصابة: ٨/٩٥.

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبي ﷺ.

في الإصابة عن «ابن الكلبي» ان رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها...

وقال ابن هشام في السيرة:

«زوّجه إياها عمها: قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها الرسول أربعمائة درهم».

واختلفوا رابعة في المدة التي أقامتها ببيت النبي:

ففي الاصابة رواية تقول: «كان دخوله ﷺ بها، بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت».

ورواية أخرى عن ابن الكلبي:

«فتزوجها في شهر رمضان سنة ثلاث، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت في ربيع الآخر سة أربع».

وفي شذرات الذهب:

«وفيها — يعني السنة الثالثة — دخل بزينب بنت خزيمة العامرية، أم المساكين، وعاشت عنده ثلاثة أشهر ثم توفيت».

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدثين: ذكرها الدكتور هيكل باسم «زينب بنت مخزوم» في قضية زواج زينب بنت جحش. وجزم بأنها «قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذي استشهد يوم بدر، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين (؟!) كما جزم بأنها «لم تكن ذات جمال» [1] ومبلغ علمي أنه ما من مصدر مما وقفت عليه، تعلق بوصف شكلها وصورتها.

---

(1) ٢٨٨، ٢٩١.

وقال بودلي : «... تبع زواج محمد من حفصة زواجٌ آخر، وكان زواجا شكليا أكثر من أي شيء آخر. كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث – ابن عم لمحمد سقط في بدر – وكان اسمها زينب بنت خزيمة، وما ضمها محمد الى نسائه الا بدافع الشفقة، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر»[1].

ولم يطل بها المقام في بيت النبي ﷺ، ليقال إن زواجها كان شكليا بدافع الشفقة.

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتّاب السيرة في أمر زينب بنت خزيمة، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء، ولا يكاد اسمها يذكر في أي كتاب مما ذكرنا إلا مقرونا بلقبها الكريم: أم المساكين.

في السيرة الهشامية :

«وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها اياهم ورقتها عليهم»[2].

وفي الاستيعاب والإصابة :

«وكان يقال لها أم المساكين، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم».

ومثله في تاريخ الطبري[3] وشذرات الذهب[4].

ولا بد لي من أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ «الشيخ محمد المدني» في مجلة الرسالة – عدد ١١٠٣ تاريخ ٩٦٥/٣/٤ – فيه ما نصه :

---

(١) الرسول : ١٧٦ من الترجمة العربية.

(٢) السيرة : ٢٩٦/٤.

(٣) ٣٣/٣.

(٤) ١٠/١.

«وكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها هي أجودهن – يعني أزواج النبي – وأبرهن باليتامى والمساكين... حتى كانت تعرف بأم المساكين».

ولست أدري من أين جاء فضيلته بهذا اللقب للسيدة زينب بنت جحش، فكل مصادرنا عن السيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ الاسلامي الأولى، تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة «زينب بنت خزيمة»!

* * *

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر «الواقدي» ونقل «ابن حجر» في الاصابة، ولم أقف على خبر عنها في حياتها الزوجية القصيرة، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبي ﷺ وأمومة المؤمنين، منصرفة عن شواغل الحريم، بما كان يشغلها من أمر المساكين، قانعة بحظها من تقدير النبي ﷺ، والمؤمنين، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة...

ورقدت في سلام، كما عاشت في سلام. وصلى عليها النبي عليه الصلاة والسلام، ودفنها بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

ولم يمت منهن في حياته ﷺ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى – ومدفنها بالحجون في مكة – والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية، أم المؤمنين وأم المساكين.

* * *

(٦)

أم سلمة
بنت زاد الركب

«لما تزوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» حزنت حزنا شديدا لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وصفت به»

عائشة بنت أبي بكر

(طبقات ابن سعد)

العِـزّة والجَمَال

خلا بيت «أم المساكين» في دور النبي ﷺ، وقتا غير قصير، ثم جاءت «أم سلمة» فشغلته.

قالت، فيا روى ابن سعد في (طبقاته):

«... فتزوجني، فنقلني إلى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين».

واسمها: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية (١)

وأحدث دخولها ضجة في دور النبي ﷺ وأشاع قلقا في الزوجتين الشابتين، «عائشة وحفصة، ابنتي أبي بكر وعمر».

إنها ضرة جديدة عزيزة، عريقة المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، تزفها إلى بيت النبي ﷺ أمجاد طوال عراض.

أبوها: أحد أبناء قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد ذهب على الدهر بلقب «زاد الركب» أن كان إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد.

وأمها: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية، من بني فراس الأمجاد. وكان جدها علقمة، يلقب بجذل الطعان.

وزوجها الذي مات عنها: أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد

---

(١) السيرة ٣٤٥/١، ٢٩٤/٤، تاريخ الطبري ١٧٧/٣، ونسب قريش ٢١٦، المحبر ٨٣، الاستيعاب ١٩٣٩/٤، السمط الثمين (٨٦)، الإصابة ٢٤٠/٨، عيون الأثر (٨٦/٢).

الله بن عمر بن مخزوم ، الصحابي ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى : برة بنت عبد المطلب بن هاشم ، وأخوه ، ﷺ ، من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ، مولاة أبي لهب [١] .

وكان لأبي سلمة ، ولزوجه هند ، إلى جانب هذا النسب العريق ، ماض مجيد في الإسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة ، حيث ولدت هند هنالك ابنهما «سلمة» [٢] .

ثم قدما مكة ، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة ، وقد ضري اضطهاد قريش للمسلمين. فلما أذِنَ النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ، أجمع «أبو سلمة» أمره على الهجرة بأهله ، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال — على بعد العهد بها وتطاول الآماد — عنيفة الاثارة أليمة الوقع .

حدثت «أم سلمة» رضي الله عنها ، قالت : [٣] .

«... لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل بعيرا له وحملني وحمل معي ابني سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا الى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجي :

— والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسني بنو المغيرة عندهم .

---

(١) السيرة : ١٠٢/٣ والاستيعاب (٦٣٩ ، ١٦٨٢) وانظر معها : جمهرة انساب العرب (١٣٤) ونسب قريش (٣٣٧).

(٢) السيرة ٣٤٥/١

(٣) ابن إسحاق : السيرة ١١٢/٢ ، والسمط الثمين ٨٧ ، مع ترجمتها في الاستيعاب والإصابة.

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفُرِّق بيني وبين زوجي وابني ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أُمسي ، سنةً أو قريبا منها .

حتى مر بي رجل من بني عمي ، أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها!

وما زال بهم حتى قالوا :

— الحقي بزوجك ان شئت .

وردَّ عليَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت بعيري ووضعت ابني في حجري ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ...

حتى اذا كنت بالتنعيم — على فرسخين من مكة — لقيت عثمان ابن طلحة [1] فقال : أين يا بنت أبي أمية؟

قلت : أريد زوجي بالمدينة .

فقال : هل معك أحد؟

فقلت : لا والله ، الا الله وابني هذا .

فقال : والله ما لك من مَتْرُك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معي يقودني ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . اذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيري فقدمه ورحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبي .

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وإنما أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد . فلما فتحت مكة ، دفع النبي ﷺ مفاتيح الكعبة الى عثمان بن طلحة والى ابن عمه شيبة بن عثمان ابن أبي طلحة ، وقتل عثمان شهيدا بأجنادين في خلافة عمر رضي الله عنهما . وانظر ترجمته في الطبقات ، والاصابة ، والاستيعاب .

فإذا ركبت واستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بي . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة ، فلما نظر إلى قرية بني عمر بن عوف بقباء – وكان بها منزل أبي سلمة في مهاجره – قال :

إن زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا الى مكة » .

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت من المهاجرين الأولين الى الحبشة .

وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ، أول من هاجر الى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ [1] .

وفي المدينة ، عكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها للجهاد .

ولما خرج الرسول في غزوة ذي العشيرة – في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهي الغزوة التي وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم بني ضمرة – اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة [2] .

وشهد غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تمّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، في أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد ... ثم شهد يوم أحد ، وأبلى فيه بلاء مشهودا . ورُميَ بسهم في عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم .

فلما أرجف المرجفون لمحمد بالاسلام بعد « أحد » وبلغ النبي ﷺ بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بني أسد يدعون إلى مهاجمته في دار هجرته ، دعا اليه « أبا سلمة » فعقد له لواء سرية إلى قطن ، وهو جبل بناحية فيد – ماء لبني أسد بن

(١) السيرة ٣٤٤/٢ وطبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ١١٥/١ .

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢ ط ليدن والسيرة ٢٤٨/٢ ، وعيون الأثر ٢٢٦/١ .

خزيمة – ومعه مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص . . .

ونفذ «أبو سلمة» ما أمر به النبي ﷺ من أخذ العدو على غرة ، فأحاط بهم في عماية الصبح على غير أهبة منهم لنضال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت «أحد» من هيبة المسلمين [١] .

في هذه السرية ، انتكأ الجرح الذي أصاب أبا سلمة يوم أحد ، فظل به حتى مات منه لثمان خلون من جمادى الآخرة سنة أربع .

وحضره النبي وهو على فراش موته ، وبقي إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات .

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت؟ فقال :

«لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبي سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك» [٢] .

* * *

قال ابن عبد البر ، [٣] إن أبا سلمة «قال عند وفاته : اللهم أخلفني في أهلي بخير. فأخلفه رسول الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمّاً للمؤمنين ، وعلى بنيه : سلمة وعمر وزينب» ودرّة .

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة «أم سلمة» فتقدم إليها منهم «أبو بكر الصديق» خاطبا ، فرفضت في رفق .

وتلاه «عمر بن الخطاب» فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣٥/٢ ، عيون الأثر ٣٨/٢ .

(٢) تاريخ الطبري : ١٧٧/٢ .

(٣) الاستيعاب ، ترجمة أبي سلمة : «عبد الله بن عبد الأسد المخزومي» .

ومن بعدهما، بعث إليها النبي ﷺ يخطبها، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم، لكنها أشفقت – وقد جاوزت سن الشباب، ومعها عيال لها صغار – ألا تملأ مكانها في بيت النبي، الى جانب عائشة وحفصة.

وأرسلت إلى النبي ﷺ تعتذر، وتقول: إنها غيرى، مُسِنَّة... ذات عيال...

فقال عليه الصلاة والسلام:

«أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأما العيال فإلى الله ورسوله»[1].

* * *

وتم الزواج في شهره المبارك «شوال من السنة الرابعة على الصحيح»[2].

وتكلفت «عائشة وحفصة» ما أطاقتا من شجاعة، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشيء من المجاملة، لكن «عائشة» لم تطق صبرا على هذا التكلف، فكشفت لحفصة عما تطوي من ألم وغيرة. في طبقات ابن سعد عن الواقدي، حديث عائشة رضي الله عنها:

«لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها. فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وصفت به، فذكرت ذلك لحفصة فقالت:

«ما هي كما يقال»... وذكرتْ كبر سنها...

«فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة، ولكني كنت غيرَى».

وما من شك في أن «أم سلمة» قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة،

---

(١) السمط الثمين: ٨٩، والمحبر ٨٥، والاستيعاب والإصابة، وعيون الأثر ٢/٣٠٤.

(٢) الإصابة وعيون الأثر، خلافا لما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب «سنة اثنتين» ولا يصح.

الزوجة المفضلة ، ولعلها – لذلك – قد رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة ، كي تفرغ لواجباتها الزوجية [1] .

وفي الصحيحين حديث أم سلمة رضي الله عنها ، قالت :

قلت : يا رسول الله ، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم ؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا ، إنما هم بنيَّ . قال : نعم ، لكِ أجرُ ما أنفقت عليهم » [2] .

* * *

وبدا واضحا أن « أم سلمة » تعرف لنفسها قدرها ، وتأبى على « عائشة » أو سواها المساس بكرامتها ، وقد أعزها بجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب .

وكذلك أبت على « عمر » أن يتكلم في مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن الرسول ، وقالت له منكرة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

قال عمر : « فأخذتني أخذا كسرتني به عن بعض ما كنت أجد » [3] .

. وما قالت كلمتها هذه إلا وهي مدلة بمكانها عند النبي ﷺ وفي بيته ، فقد كان ﷺ بعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك ، فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضي الله عنهم ، فضمها اليه ، ثم قال : رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد . فبكت « أم سلمة » فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها في حنو : ما يبكيك ؟ ... أجابت : يا رسول الله خصصتهم ، وتركتني وابنتي . قال : إنك وابنتك من أهل البيت [4] .

(١) السيرة ١٧١/٢ ، والسمط ٩٠ ، والإصابة .

(٢) اللؤلؤ والمرجان : ٢٣٤/١ ح (٥٨٥) .

(٣) من حديث عمر رضي الله عنه ، متفق عليه (اللؤلؤ : ٨٣٠/٢ ح ٩٤٤) .

(٤) السمط الثمين : ٧٠ .

وقد شبت زينب في رعاية الرسول «فكانت من أفقه نساء أهل زمانها» ويروى أنها «دخلت على النبي ﷺ وهو يغتسل فنضح في وجهها، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت»[1].

ويلغ من اعزازه ﷺ ربيبه «سلمة» أن زوّجه «أُمامة بنت حمزة بن عبد المطلب» عمه الشهيد رضي الله عنه.

«ويقول أهل العلم بالنسب، إن سلمة هو الذي عقد الله، ﷺ، على أمّه أم سلمة. فلما زوجه أمامة بنت حمزة، أقبل ﷺ على أصحابه فقال: ترون كافأته؟»[2].

وكذلك شب أخوه عمر وأختِه دُرَّة، في كفالة النبي ﷺ ورعايته، فكانا مع سلمة وزينب، من ربائبه وأهل بيته رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر في ترجمة «زينب» بالاستيعاب والإصابة.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في ترجمة «سلمة» بالاستيعاب وانظر في طبقات الصحابة: عمر بن أبي سلمة، ودرة بنت أبي سلمة، ربيبي النبي ﷺ.

وحيٌ ... ومشورة

وكان الوحي ينزل على رسول الله في بيت «عائشة» فتباهي بذلك ضرائرها ، حتى جاءت «أم سلمة بنت زاد الركب» فكان مما أوحي إليه وهو عندها قوله تعالى ، في سورة التوبة :

«وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم» — ١٠٢ .

وفي سبب نزول الآية يروون أن النبي ﷺ ، لما غزا بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله في قلوبهم الرعب فبعثوا الى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه «أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصار ي» ليستشيروه في أمرهم . فأرسله إليهم ، فلما رأوه قام اليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون في وجه ، فرق لهم .

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد؟

فأجاب : «نعم ، انه الذبح» . وأشار بيده الى حلقه .

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف انه خان الله ورسوله .

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه الى عمود من عمد المسجد ، وقال :

«لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت» .

قال ابن هشام :

«... أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع...

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: «أما أنه لو جاءني لاستغفرت له. فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه» ثم روى ابن إسحاق بسنده، أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو في بيت أم سلمة، فقالت، وقد سمعته يضحك: قلتُ:

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟

قال: «تيبَ على أبي لبابة».

قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟

فقال: «بلى، إن شئتِ».

فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

فثار الناس ليطلقوه، فأبى وقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده.

فلما مر رسول الله ﷺ خارجا الى صلاة الصبح أطلقه (١).

* * *

وفي العام السادس للهجرة، صحبت «أم سلمة» النبي ﷺ في رحلته إلى «مكة» محتمرا، وهي الرحلة التي صدت فيها قريش «محمدا» وأتباعه عن دخول البلد الحرام، وتم عهد الحديبية.

---

(١) السيرة ٢٤٧/٣ والنقل منها -- وتاريخ الطبري، السنة الخامسة من الهجرة ٥٤/٣، وترجمة أبي لبابة بن عبد المنذر في الكُنى من الاستيعاب.

وكان «لأم سلمة» يومئذ دور جليل مذكور في تاريخ الإسلام.

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين بلغهم نص العهد، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون. ويكفي أن نذكر من ذلك أنه حين تم الاتفاق على شروط الصلح ولم يبق إلا كتابته، وثب «عمر بن الخطاب» فأتى أبا بكر فسأله:

«أليس برسول الله؟

«أو لسنا بالمسلمين؟

«أو ليسوا بالمشركين؟

فيجيب أبو بكر في كل مرة: بلى.

قال عمر: «فعلام نعطى الدنية في ديننا؟»

فحذره أبو بكر ثم قال: «إني أشهد أنه رسول الله».

قال عمر: «وأنا أشهد أنه رسول الله».

ثم مضى «عمر» فأتى الرسول ﷺ، فسأله مثل ما سأل أبا بكر، حتى إذا بلغ قوله:

«فعلام نعطى الدنية في ديننا؟»

أجابه الرسول:

«أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني» [1].

واستفحل الأمر إلى حد منذر بخطر، حتى إن النبي ﷺ أمر أصحابه أن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا، فما قام منهم رجل، فعل ذلك ثلاث مرات وما منهم من

---

(١) السيرة ١٣١/٣، والنقل منها. والحديث متفق عليه، أخرجه الشيخان (اللؤلؤ والمرجان ٢٦٣/٢).

يستجيب. فدخل على زوجه «أم سلمة» فذكر لها ما لقي من الناس فقالت:

«يا نبي الله، أتحب ذلك؟.. اخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك» وأصغى، ﷺ إلى مشورتها، فخرج فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر وحلق، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وندما.

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم، فأدركوا أي صلح خطير عقد النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه ما فتح في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه، فلقد دخل في دين الله بعد الحديبية، مثل من كان قبل ذلك وأكثر.

* * *

وكذلك صحبت «أم سلمة» النبي ﷺ في غزوة خيبر، وفي فتح مكة، وفي حصاره الطائف وغزو هوازن وثقيف، ثم في حجة الوداع، سنة عشر من الهجرة.

ولا أعلم أنها ظاهرت السيدة عائشة على نساء النبي ﷺ، إلا ما كان من غيرتها من «مارية القبطية» حين حملت من سيد البشر، ولم تحمل منه أم سلمة وهي التي ولدت لابن عمته البنين والبنات.

فلما لطف الله بها، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبي ﷺ إياهن، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدي. إلى أن مرض عليه الصلاة والسلام، واستبطأ يوم عائشة، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين، عن طيب خاطر، بأن يُمرض حيث أحب، في بيت عائشة.

* * *

الله من وراء هذه الأمة

ثم حاولت من بعده – ﷺ – أن تتجنب الخوض في الحياة العامة، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فاندفعت تؤازر الإمام علياً، ابن عم الرسول، وزوج ابنته الزهراء، وأبا الحسن والحسين.

وودت لو تخرج فتنصره، لكنها كرهت أن تبتلى وهي أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج، فجاءت «عليا» كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة:

«يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عز وجل، وأنك لا تقبله مني، لخرجت معك. وهذا ابني عمر، والله لهو أعز علي من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك»[1].

ثم مضت إلى «عائشة» فقالت لها في عنف وانكار:

«أي خروج هذا الذي تخرجين؟... الله من وراء هذه الأمة!.. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي: ادخلي الفردوس، لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه عليّ».

* * *

لكن «عائشة» مضت في طريقها لا تلوي على شيء...

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتُحنت، كما امتحن الاسلام وأمته، بمذبحة «كربلاء» ومصارع الامام الحسين وآل البيت، ﷺ، على الساحة المشئومة.

---

(١) شهد عمر بن أبي سلمة يوم الجمل مع الإمام علي، واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة).

«توفيت رضي الله عنها بعدما جاءها نعي الحسين بن علي رضي الله عنهما» على ما صح عند الحافظ ابن حجر، وحكاه في ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبي بكر ابن أبي خيثمة وابن حبان. وحكاه القاضي عياض عن ابن أبي خيثمة وابن عبد البر. وهو أيضاً ما أثبته ابن حبيب. خلافا لقول الواقدي بوفاتها سنة تسع وخمسين [١].

وصلى عليها «أبو هريرة» رضي الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع، أم سلمة بنت زاد الركب، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن.

حديثها عن النبي ﷺ في الكتب الستة. وفيها كذلك ما روى ابنها سلمة وبنتها زينب، ربيبا النبي، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.[٢]

---

(١) الإصابة، وتهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢ : هند بنت أبي أمية المخزومية) وصحيح مسلم، هامش (٢٢٠٨/٤) مقابلا على الاستيعاب ١٩٢٨/٤.

(٢) تراجم: هند بنت أبي أمية، وعمر بن أبي سلمة وزينب بنت أبي سلمة، رضي الله عنهم في الإصابة وتهذيب التهذيب وخلاصة التذهيب.

(٧)

زينب بنت جحش رضي الله عنها

أكرمهنّ وليّاً وسفيراً

« ... يا رسول الله ، ما أنا كإحدى نسائك . ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها ، غيري ... زوجنيك الله من السماء » .

زينب بنت جحش
أم المؤمنين
(الإصابة)

شريفة ومولى

حين دخلت «أم سلمة» بيت النبي ، وتحدثت «عائشة» إلى «حفصة» عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس ، لفتتها «حفصة» إلى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقي غيرتها لمن هي أولى.

وكأنما كانت «حفصة» تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج النبي ﷺ من «أم سلمة» غير عام أو بعض عام ، حتى دخلت بيت الرسول من هي أولى بغيرة عائشة :

«زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية» الشابة الشريفة الحسناء ، سليلة بني أسد بن خزيمة المضري ، وحفيدة عبد المطلب بن هاشم أمها «أميمة بنت عبد المطلب» عمة النبي ﷺ.

* * *

ولو كانت «زينب» قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبي ﷺ فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من في بيته من أزواج ، فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى ، في القرآن الكريم.

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها مدينة الرسول مثل «زينب بنت جحش» ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة حسمها الوحي.

---

(١) ترجمتها في : طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب. والمحبر لابن حبيب : ٨٥ ، والسيرة الشامية ٣٩٨/٤ ، والسمط : ١٠٧ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع : نسب قريش ١٩ ، وجمهرة الأنساب ١٨٠.

ولبيان هذا لا بد من استطراد يسير، نرجع به إلى ما قبل المبعث، حين رجع «حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي» من تجارة له، ومعه رقيق، فيهم غلام في الثامنة يدعى زيدا.

وما كان «زيد» عبدا، بل هو «زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبي» من كلب بن وبرة القضاعي القحطاني. من بني زيد اللات، خرجت به أمه «سعدى بنت ثعلبة» لتزيره أهلها بني معن بن طيئ، فأصابته خيل من بني القين بن جسر، فباعوه بسوق من أسواق العرب، وكان حكيم بن حزام هو الذي اشتراه.

وجاءت «خديجة» — وهي يومئذ زوجة سيدنا محمد بن عبد الله — تزور ابن أخيها، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان، فأخذت «زيداً» ورآه سيدنا «محمد» فاستوهبه منها فوهبته له راضية [1].

وكان أبوه «حارثة بن شُراحيل» قد جزع عليه أشد الجزع، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه في مكة، فانطلق مع أخيه «كعب» حتى وقفا على محمد بن عبد الله، حيث وجداه في البيت العتيق، فقالا له:

«يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العاني وتطعمون الجائع، وقد جئتك في ابننا، فتحسن الينا في فدائه؟»

قال: «أو غير ذلك؟»

قالا: «ما هو؟».

أجاب: «أدعوه وأُخيِّره، فإن اختاركما فذاك، وان اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً».

---

(١) هذه رواية السيرة: ١/٢٦٤ وتاريخ الطبري ٢/٢١٥ وترجمة زيد في الاستيعاب (٢/٥٤٤) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث. وقريب منه، ما في السمط الثمين (١٠٨).

هتفا معا: «قد زدتَ على النصفة».

ودُعيَ زيد، فعرف أباه وعمه، وخيَّره سيدنا محمد: إن شاء ذهب معهما، وإذا أحب أقام معه.

فاختار سيده!

وتوسل إليه أبوه:

«يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمك، وبلدك، وقومك؟»

فتماسك «زيد» ليجيب:

«اني قد رأيت من هذا الرجل شيئا، وما أنا بالذي افارقه أبدا».

فعند ذلك أخذ محمد بيده، وقام به الى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا.

ودعي الغلام «زيد بن محمد».

وكان أول من أسلم، بعد «علي بن أبي طالب».

وعندما آخى النبي ﷺ بين أصحابه المهاجرين، كان زيد وحمزة بن عبد المطلب الهاشمي، أخوين.

فلما بلغ «زيد» سن الزواج، اختار له النبي عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب: «زينب بنت جحش».

وكرهت زينب، وكره أخوها «عبد الله بن جحش»، أن تزف الشريفة المضرية الى مولى من الموالي.

وفزعا إلى ابن خالها يسألانه ألا يلحق بهما مثل ذلك الضيم، فما كانت بنات الأشراف ليتزوجن من موالٍ وان أعتقوا... وقالت زينب فيما قالت يومئذ: «لا أتزوجه أبدا...».

فحدثها ﷺ عن مكان «زيد» منه ومن الإسلام، وعن أصله العربي الصريح، أباً وأماً. لكنها – على حبها للنبي عليه الصلاة والسلام وحرصها على طاعته، كرها هذا الزواج، حتى نزل فيها قوله تعالى:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا»[1].

وتزوجت «زينب» زيدا... طاعةً لأمر الله ورسوله، والتزاما بالمبدأ الإسلامي: لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

* * *

(١) سورة الاحزاب: آية ٣٦.

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لها ، فما نسيت «زينب» قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت لحظة أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى «زيد» من صدها وإبائها وترفعها ما استنفد صبره ، فشكا إلى النبي ﷺ غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال ، ويأمره أن «أمسك عليك زوجك واتق الله ...» .

ثم حدث ما يرويه «الطبري» بسند مرفوع إلى محمد بن يحيى بن حبان ، أن الرسول افتقد زيدا فجاء منزله يطلبه . فهرعت «زينب» تستقبله ، وقد أعجلتها اللهفة عن استكمال ثيابها للقاء الرسول ، فقالت :

«ليس هو ها هنا يا رسول الله ، فادخل بأبي أنت وأمي» [١] .

وفي رواية أخرى ، نقلها الطبري كذلك : «ان الرسول جاء يطلب زيدا وعلى باب زينب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهي في حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها في قلب الرسول ﷺ» .

ودعته الى الدخول فأبى ، وولى — عليه الصلاة والسلام — وهو يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله : «سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب» .

وأقامت «زينب» في مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها ، حتى جاء «زيد» فكان أول ما لقيته به ، أن النبي ﷺ أتى منزله . سألها زيد :

«ألا قلت له : ادخل ...» قالت :

---

(١) تاريخ الطبري ٤٢/٣ وما بعدها .

«بلى، قد عرضت عليه ذلك فأبى».

واستطرد «زيد» مستفسراً: «فسمعته يقول شيئاً؟»

قالت: «سمعته يقول حين ولى: «سبحان الله العظيم، سبحان الله مصرف القلوب».

فأطرق «زيد» برهة، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فقال:

«يا رسول الله، بلغني أنك جئت منزلي، فهلا دخلت بأبي أنت وأمي؟».

ثم أضاف متسائلا: «فأفارقها؟»

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«مالك؟ أرابك منها شيء؟»

قال زيد: لا والله يا رسول الله، ما رابني منها شيء ولا رأيت الا خيرا، ولكنها تتعظم عليَّ لشرفها، وإن فيها كبرا، تؤذيني بلسانها».

قال عليه الصلاة والسلام:

«أمسك عليك زوجك».

وأذعن زيد، وعاد ليجرب الاحتمال من جديد، ويكابد مزيدا من الشقاء.

لكن زينب هجرته، فما استطاع إليها سبيلا بعد ذلك اليوم، حتى نفد احتماله ففارقها وكان الطلاق.

* * *

هذه هي قصة زينب في رواية الإمام أبي جعفر الطبري في تاريخه. وبنحوها ذكرها النسابة أبو جعفر ابن حبيب، والمحب الطبري، وجار الله الزمخشري [1].

---

(١) المحبر لابن حبيب: ٨٥، والسمط الثمين: ١٠٨، ويأتي فيما يلي نص أقوال الزمخشري في الكشاف.

وأغلب الظن أن «الدكتور محمد حسين هيكل» لم يقف على هذه الرواية الإسلامية في مصادرنا، فذهب إلى أنها – يقينا – من مفتريات المستشرقين والمبشرين: «الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله... ويكفي لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه، هي ابنة عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام..و.. وأنه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم لا؟ قبل أن تتزوج زيدا... وأنه الذي خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص: من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال: سبحان مقلب القلوب. أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها في قميصها وكأنها مدام ريكاميه. فانقلب فجأة ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة.[1]

وعند الدكتور هيكل أن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة، وإنما أراد أن يأتمر بحكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبني والادعاء، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس في خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة، فلم يرضَ له الله أن يخفي في نفسه ما الله مبديه، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وأضاف الدكتور هيكل:

«أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التي يكررها المستشرقون والمبشرون.

«ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة، والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للاسلام تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية، هي التي تملي على هؤلاء جميعا ما يكتبون، وتجعلهم في أمر زواج النبي، وفي أمر زواجه من زينب بنت

---

(١) حياة محمد: ٢٩١ وقوله: «زينب بنت مخزوم» فيه وهم، فهي بنت خزيمة الهلالية ولم تدرك زواج بنت جحش، بل توفيت قبله بزمن.

جحش ، يتجنون على التاريخ ويلتمسون أضعف الرواية فيه مما دس عليه ونسب إليه » [1] .

وما أنبله من رد ، لولا ان قصة اعجاب الرسول بزينب ، وحكاية الستر من الشعر الذي رفعته الريح ، وانصراف الرسول عن بيت زيد وهو يقول : سبحان الله مقلب القلوب ، قد حكاها سلف لنا صالح ، غير متهمين بالكيد للإسلام ، من قبل أن تسمع الدنيا بالحروب الصليبية والتبشير والاستشراق .

فمن الحق أن ندع المستشرقين والمبشرين أمثال موير ، ومرجليوث ، وارفنج ، وسبرنجر ، ولننظر في القضية على ما حكاها الطبريان وابن حبيب .

هل فيها ما يريب ؟

إن آية العظمة في شخصية نبينا ، انه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وما نعرف في تاريخ الأبطال — ولا أقول الأنبياء — من أصر على تقرير بشريته إصرار محمد ابن عبد الله ، ولا عرفت الإنسانية كتاب دينٍ كالقرآن ، جعل من بشرية المبعوث به ، آية تتلى وقرآنا يتعبد به المؤمنون ، وأصلا من أصول العقيدة الإسلامية :

أفينكر على بشر رسول ، أن يرى مثل زينب فيعجب بها ؟

وماذا يطلب من مثله — في سمو خلقه وعفة ضميره — أكثر من أن يشيح بوجهه عمن أعجبته ، وهو يسبح باسم الله العظيم ، مقلب القلوب ؟

وأي ضبط للنفس ينتظر من بشر رسول ، أكثر من أن يجيئه زيد فيستأذنه من جديد في طلاقها ، فيأبى عليه الا أن يمسكها ويتقي الله ! ؟ .

ان القصة — وقد نقلها إلينا رواة غير متهمين — لترتفع بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى أقصى ما تطيقه بشرية من عفة وضبط للنفس واعتقال للهوى ، وانها

---

(١) حياة محمد : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤

لجديرة بأن تعد مفخرة لمحمد والاسلام، فما ادعى قط أن قلبه بيده يصرفه حيث شاء، ولا زعم مرة، انه مبرأ من عواطف البشر منزه عن أهوائهم، وقد كان يقول في إيثاره عائشة على غيرها من أزواجه، مع ما تحرى من العدل بينهن:

«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

فكيف نخاف عليه لو ما إن مال قلبه إلى «زينب»، ثم أبى مع هذا الميل، إلا أن يأمر زوجها بإمساكها، على ما يعرف من شقائها بهذا الامساك؟

أما كونه رآها طفلة وصبية وشابة، وزفها بيده إلى زيد، فسبحان مقلب القلوب.

وأما ان المسألة خلت خلوا تاما من أي ميل أو هوى، وان «قصة الحب» من مفتريات المبشرين، وان الله لم يعاتب الرسول الا لأنه أشفق من مواجهة العرب بنقض عادتهم في التسوية بين البنوة والتبني، أما هذا كله، فننقل فيه قول الزمخشري في تفسيره للآية من نحو تسعة قرون — أن رسول الله «أبصر زينب بعد ما أنكحها زيدا فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله مقلب القلوب. وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها، ولو أرادتها لاختطبها.

«فإن قلت: ما الذي أخفى في نفسه؟ قلت: تعلق قلبه بها. وقيل: مودة مفارقة زيد اياها...

«فان قلت: كيف عاتبه الله في ستر ما استهجن التصريح به، وما له لم يعاتبه في نفس الأمر، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس عن أن تنازع على زينب وتتبعها، ولم يعصم نبيه ﷺ عن تعلق الهجنة به وما يعرضه للقالة؟ قلت: كم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق، لا مقال فيه ولا عيب عند الله... لأن طموح قلب الانسان الى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، لأنه ليس بفعل الانسان، ولا وجوده باختيار»[1].

(١) تفسير الكشاف: سورة الاحزاب جـ ٢٣٧/٣ ط التجارية.

هل لي أن أقول بعد هذا ، إن « الدكتور هيكل » أخطأ من حيث أراد الدفاع عن سيدنا محمد ﷺ ؟.. ذلك انه بانكاره ما أنكر منها ، قد ألقى على المسألة ظلالا من الريبة ، توهم أن مثل هذا ، خطأ لا يجوز على المصطفى ، ومنقصة يجب أن نتزهه عنها . وما في الأمر شيء من ذلك قط ، إنما هي البشرية تتعرض لما لا تملك دفعه من أهواء ، فتتسامى وتترفع في نبل وعفة ، ثم تأبى الا المضي في الامتناع عما أحل الله دفعا لمقالة الناس ، ويأبى الله على رسوله أن يتحرج من زواج كهذا أباحه الشرع ، وقضت به مصلحة عامة هي « ألا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » ومصلحة أخرى خاصة « هي أن تأمن زينب – بنت عمته – الأيمة والضيعة ، وتنال الشرف بأن تغدو من أمهات المؤمنين. ومن هنا كان عتاب الله لرسوله ، حين كتم الأمر وبالغ في كتمه ، والله لا يرضى له الا اتحاد الضمير والظاهر ، والثبات في مواطن الحق ، حتى يقتدي به المؤمنون فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرًّا »(١)

* * *

فلندع المبشرين والمستشرقين ، ولننظر في هذه الرواية الإسلامية من القرون الأولى للهجرة .

أقدم من رواها على هذا الوجه – فيما أعلم – الأخباري النسابة ابن حبيب (توفي سنة ٢٤٥ هـ) ولم يذكر فيها أي سند له .

بعده رواها الإمام الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه ، من مراسيل التابعين ، بإسنادين رجالهما معروفون .

لكن هذه الرواية لم تأت في مصادر أمهات ، ككتب الصحاح الستة ، وسيرة ابن إسحاق وطبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وعيون الأثر . كما أن الإمام الطبري نفسه ، لم يشر في تفسيره العمدة ، إلى هذه الحكاية التي رواها في تاريخه .

(١) الزمخشري : الكشاف ٢٣٨/٣ تفسير آية الأحزاب ٣٧ .

الذي في تفسيره لآيات الأحزاب ، لا يكاد يخرج عما في المصادر التي ذكرناها آنفا . وأنقل هنا ما في ترجمة الحافظ ابن عبد البر ، لأم المؤمنين زينب بنت جحش :

« ... ولا خلاف في أنها كانت قبله تحت زيد بن حارثة . فلما طلقها زيد وانقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ ... ولما تزوجها تكلم في ذلك المنافقون وقالوا : حرَّم محمد نساء الولد ، وقد تزوج امرأة ابنه . فأنزل الله عز وجل : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ... ، إلى آخر القصة . وقال الله تعالى : « ادعوهم لآبائهم ... » الآية . فدُعِيَ من يومئذ : زيد بن حارثة . وكان يُدعَى زيد بن محمد » .

ونحوه ما في تفسير الإمام الطبري ، وفي الإصابة مجملا ، وعيون الأثر . مع خلاف يسير لا يتعلق بجوهر القضية . [1]

وأحسبه ، والله أعلم ، أقرب إلى صريح النص من الآيات المحكمات ، في سورة الأحزاب :

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولُكم بأفواهكم واللهُ يقول الحقَ وهو يهدي السبيل » ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ... » ٤ - ٥ .

« وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسِكْ عليك زوجك واتّق الله ، وتخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيْ لا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا » . - ٣٧ .

صدق الله العظيم .

* * *

---

(١) الاستيعاب ١٨٤٩/٤ ، تفسير الطبري ٧٥/٢١ ، الإصابة ٩٢/٨ ، عيون الأثر ٣٠٤/٢ .

وليمة وحجاب

روى الواقدي : فبينا رسول الله ﷺ يتحدث عند عائشة ، أخذته غشية . فسُري عنه وهو يتبسم ويقول : من يذهب إلى زينب يبشرها ؟ وتلا : «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله» . الآية [١]

وطار البشير إلى «زينب» بالبشرى ، قيل حملته إليها سلمى خادم الرسول وقيل بل حمله إليها «زيد» نفسه ، فتركت ما بيدها وقامت تصلي لربها شاكرة [٢] .

وكانت وليمة العرس حافلة مشهودة : ذبح المصطفى شاة ، وأمر ﷺ مولاه «أنس بن مالك» أن يدعو الناس إلى الوليمة ، فترادفوا أفواجا ، يأكل فوج فيخرج ، ثم يدخل فوج . قال أنس في حديثه عن وليمة العرس :

«حتى أكلوا كلهم فقال لي : يا أنس ، ارفع .

وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالس ، وزوجته مولية ظهرها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ» .

وفي رواية : فتخلف رجلان استأنس بهما الحديث لم يخرجا . فجعل يمر على نسائه فيسلم على كل واحدة منهن : «سلام عليكم ، كيف أنتم يا أهل البيت ؟» فيقلن : بخير يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فيقول : «بخير» فلما فرغ رجع ورجعت معه ، فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث ، حتى خرجا . فوالله ما أدري : أنا أخبرته أم أنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا ؟ وأرخى الحجاب بيني وبينه ، وأنزل الله تعالى : «لا تدخلوا بيوت النبي ...» الآية [٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد ، وعنه في الإصابة .

(٢) تاريخ الطبري : ٤٣/٣ . وصحيح مسلم ١٠٤٨/٢ : ح (١٤٢٨) .

(٣) حديث أنس رضي الله عليه وسلم في في وليمة العرس ، أخرجه الشيخان في كتاب النكاح من (الصحيحين) - اللؤلؤ والمرجان ١٠٨/٢ ح : ٩٠٢ - ٩٠٥ .

وتمام آية الحجاب ، من سورة الأحزاب :

«يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين إنَاهُ ولكنْ إذا دُعيتُم فادخلوا فإذا طَعِمتُم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ، واللهُ لا يستحيي من الحق ، وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبِهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكِحوا أزواجه من بعده أبدا ، إن ذلكم كان عند الله عظيما» — ٥٣

ومن يومئذ ، فُرِض الحجاب على نساء النبي ، وعلى المؤمنات جميعا ، رمز تصون وعزة ، وسمة كرامة وترفع عن الابتذال...

* * *

كانت العروس يوم تزوجها النبي ﷺ في السنة الخامسة على أرجح الأقوال ، بنت خمس وثلاثين سنة. [1]

وكان اسمها «برَّة» فسماها ﷺ زينب. وفي (صحيح مسلم) حديث زينب بنت أبي سلمة ، ربيبة النبي ﷺ :

«كان اسمي برَّة ، فسماني رسول الله ﷺ زينب. ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمُها برَّة ، فسماها زينب» [2].

---

(١) الإصابة ، عن الواقدي : ٩٣/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢.

(٢) صحيح مسلم ١٦٨٧/٣ : ح (٢١٤٢).

أكرمهن وليًّا وسفيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته ، التي زوجه إياها الله.

وباتت «عائشة» ليلتها فريسة الغيرة ، قد أخذها – فيما قالت – ما قرُب وما بعُد . لما تعرف من جمال زينب ، ولما هي حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها.

وكذلك غارت نساء النبي رضي الله عنهن ، وضقن بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ ، وبأن الله هو الذي زوجها.

ولم تكذب زينب ظنهن ، فإنها ما لبثت أن واجهتهن – وقد أدركت ما يطوين لها – مباهية : «أنا أكرمُكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجني الله من فوق سبع سماوات !»(١)

وإذا كانت «أم سلمة» قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة ، الزوجة المفضلة ، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجيء فتتقدم «أمَّ سلمة» غريمة لعائشة !

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : «كانتا أحب نسائه اليه – فيما أحسب – بعدي».

ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها في الحظوة فتقول : «لم تكن واحدة من نساء النبي تناصيني غير زينب»(٢).

أي تنازعني وتباريني ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته.

وقد مر بنا ما كان من ضيق «عائشة» بميله ﷺ إلى زينب «وإطالته المكث

---

(١) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨ ، المحبر ٨٦ ، الاستيعاب ، الإصابة ، عيون الأثر.

(٢) ابن هشام : السيرة ٣١١/٣ ، الاستيعاب ، الإصابة.

لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها الرسول إثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « إني أجد ريح مغافير » [1] .

وكان يحدث أحيانا أن تحتدم بينهما المنافسة في حضرة الرسول ، فيدعهما وشأنهما لعل في هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما . وقد استطاعت « عائشة » مرة أن تغلب « زينب » فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال :

« إنها ابنة أبي بكر » [2] .

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها المصطفى ، فقد تلقى هدية وهو في بيتها ، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها . لكن زينب ردَّت ما جاءها ، فلم تملك عائشة أن قالت :

« لقد أقمأتْ وجهكَ حين ترد عليك الهدية » .

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

« أنتن أهون على الله من أن تُقْمِئنني » [3] .

وكذلك ما كان من موقف زينب من « صفية بنت حُيَيّ ، أم المؤمنين » وقولها لرسول الله ﷺ : « أنا أعطي تلك اليهودية ؟ ! »

ويأتي حديثها في المبحث الخاص بها .

---

(١) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللؤلؤ ٢/١٢٧) وقد مرَّ ، مع : السيدة عائشة ، والسيدة حفصة .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ، ومسلم في باب فضائل السيدة عائشة رضي الله عنها (ح : ٤٤٢)

(٣) السمط الثمين ص ٤٠ .

وأطولهنّ يدا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين، لم تمنع حفيدة عبد المطلب من الدفاع عن «عائشة» في محنة الافك، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت: - في رواية ابن إسحاق من طريق الزهري:

«وكان كِبر ذلك — الافك — عند عبد الله بن أبيّ بن سلول في رجال من الخزرج، مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش. وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها... فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل الا خيرا، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها، فشقيت بذلك»[1].

أجل عصمها الله تعالى بدينها، وقد كانت «زينب» صالحة تقية، صادقة التدين.

شهدت لها بذلك كله غريمتها السيدة عائشة فقالت:

«ولم أر امرأة قط خيرا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل»[2].

وفي الحديث ان رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب «ان زينب بنت جحش أواهة» فقال رجل: يا رسول الله: ما الأواه؟..

---

(١) السيرة ٣/٣١٢، مع حديث الإفك، رواية الزهري، في الصحيحين.

(٢) صحيح مسلم، ح: (٢٤٤٢)، والاستيعاب، والسمط ١١٠، والإصابة.

قال : الخاشع المتضرع . ثم تلا عليه الصلاة والسلام : «ان ابراهيم لحليم أواه منيب»[1] .

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذي أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها .

* * *

وألغى موت محمد ﷺ ، ما بين «زينب» وبين ضرائرها من التنافس على زوجهن الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة .

ذكرتْها «أم سلمة» فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين «عائشة» ثم قالت :

«كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة صوامة ، صناعا وتتصدق بذلك كله على المساكين» .

وسُمعت «عائشة» تقول حين بلغها نعي «زينب» :

«لقد ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل» .

ثم قالت :

«قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقا بي أطولكن يدا ...

«فكنا اذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، نمد أيدينا في الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن

---

(١) الاستيعاب ، والإصابة . والآية من سورة هود : ٧٥ .

بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ انما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق في سبيل الله »[١] .

ويروون أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل اليها عطاءها اثني عشر ألفاً ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركني هذا المال في قابل ، فانه فتنة »[٢] .

ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة ، فبلغ « عمر » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال :

« بلغني ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها » .

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما .

وحين حضرتها الوفاة — سنة عشرين —[٣] قالت :

« اني قد أعددت كفني ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث اليَّ بكفن ، فتصدقوا بأحدهما . وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوي — إزاري — فافعلوا »[٤]

* * *

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وشيع أهل المدينة إلى البقيع ، أم المؤمنين زينب بنت جحش ، أول من مات من نساء النبي ﷺ ، وأسرعهن لحاقا به . . .

---

(١) السمط الثمين : ص ١١٠ ، والاستيعاب : ١٨٥١/٤ والإصابة ٩٣/٨ عن الواقدي.

(٢) في ترجمتها بالاستيعاب والإصابة . وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، في كتاب فضائل الصحابة : ح (٢٤٥٢).

(٣) الإصابة عن الواقدي ، والسمط الثمين ١١١ .

(٤) في رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ١٨٥٢/٤ والإصابة ٩٤/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٥/٢.

(٨)

جويرية بنت الحارث

سيدة بني المصطلق

«... لما قسم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها. وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها — فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن سيرى فيها ﷺ ما رأيت!».

عائشة بنت أبي بكر
أم المؤمنين
أخرجه ابن إسحاق
(في السيرة النبوية)

(*) من كتاب السيرة من يقدمون في ترتيب أمهات المؤمنين، «أم حبيبة بنت أبي سفيان» على جويرية، باعتبار خطبة الأول وهي في الحبشة. كما في السيرة الهشامية والحبر.

ومنهم، كالحافظ ابن سيد الناس في عيون الأثر، من قدم جويرية على أم حبيبة، باعتبار بناء الرسول عليه الصلاة والسلام بها، حين عادت من الحبشة بعد خيبر.

الأسيرة الحسناء

شُغِلَ المصطفى عليه الصلاة والسلام، بعد زواجه بزينب بنت جحش، بأحداث هامة كبار، ملأت النصف الثاني للعام الخامس الهجري، ففي شهر شوال وأوائل القعدة، [1] كانت وقعة «الخندق» التي لقي فيها الرسول والمسلمون جموع الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام في دار هجرته. لقيهم النبي ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذي حفره حول المدينة، وقد أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

ونقض اليهود العهد الذي قطعوه على أنفسهم بالحياد، وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وزلزلوا زلزالا شديدا حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق وقال قائلون: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعا في الغنيمة، فلما ظنوا أنه مهزوم، كروا راجعين إلى ديارهم.

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما، ثم دارت الدائرة على المشركين، وتم النصر لرسول الله ﷺ، والذين معه [2]

* * *

(١) في السيرة (٣/٢٤) ان غزوة الخندق كانت في شوال سنة خمس، ومثله في تاريخ الطبري (٣/٤٣) والذي في طبقات ابن سعد (٢/٤٧) انها كانت في ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. وفي رواية نقلها الزرقاني: قال موسى بن عقبة في مغازيه: كانت سنة أربع. وانظر عيون الأثر ٢/٦٨.

(٢) السيرة ٣/٢٣٠ وطبقات ابن سعد: ٢/٤٧ وتاريخ الطبري: ٣/٤٦.

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة، وأووا إلى بيوتهم في الصبح يلتمسون راحة طويلة، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبي ﷺ يؤذن في الناس:

«من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة».

واستأنفوا القتال، وحاصروا يهود بني قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم في شهر ذي القعدة وصادر ذي الحجة [1].

بعدها كانت غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد. وعاد ﷺ إلى المدينة فما يقيم بها شهرا وبعض شهر، حتى بلغه أن بني المصطلق وهم حي من خزاعة — يجمعون الجموع لقتاله، بقيادة زعيمهم «الحارث بن أبي ضرار» [2].

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه «عائشة بن أبي بكر» حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، فكان قتال انتهى بهزيمة بني المصطلق.

وسيقت نساؤهم سبايا، وفيهن «برّة بنت الحارث بن أبي ضرار بن حبيب» سيد القوم وقائدهم، أو «جويرية» كما سماها ﷺ.

وقفل راجعا إلى المدينة.

فبينا هو جالس يوما في حجرة عائشة، سمعت امرأة تستأذن في لقائه ﷺ.

وقامت «عائشة إلى الباب لترى من تلك، فإذا شابة حلوة، مفرطة الملاحة، «لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه [3]، في نحو العشرين من عمرها، ترتجف قلقا وذعرا، وقد زادها انفعالها حيوية وسحرا.

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٣/٣، والسيرة ٣٠١/٣.

(٢) تاريخ الطبري، حوادث السنة السادسة للهجرة. وانظر جمهرة أنساب العرب: ٢٢٨.

(٣) ابن اسحاق في السيرة: ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبري: ٦٦/٣ والاستيعاب ١٨٠٤/٤ والسمط الثمين: ١١٧.

وكرهتها «عائشة» من النظرة الأولى، فوقفت حيالها وبودها لو تحول بينها وبين زوجها ﷺ، الذي كان وقتذاك يستريح.

لكن الشابة الغريبة ألحت في الاستئذان على النبي ﷺ، فلم تملك «عائشة» الا أن تستأذن لها كارهة، وفي نفسها خاطر قلق.

ودخلت الشابة المليحة فقالت في ضراعة تمازجها عزة:

«يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس... فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على أمري».

فتأثر الفارس العربي للكريمة المهانة والعزيزة المستذلة... واستثار شهامته موقفُ سيدة حرة أصيلة، تلوذ به — وهو الذي هزم قومها لتنجو من مهانة السبي وعار الرق.

ورق قلبه لبرة، العربية الخزاعية، بنت سيد بني المصطلق، في موقفها ببابه مستطارة اللب مستثارة القلق، ولا مَن ينقذها من محنتها سواه.

* * *

وتكلم ﷺ فقال: «فهل لك في خير من ذلك؟»

سألت في لهفة وحيرة: «وما هو يا رسول الله؟»

قال: «أقضي عنك كتابتك، وأتزوجك!»

فتألق وجهها الجميل بفرحة غامرة، وقالت وهي لا تكاد تصدق انها قد نجت من الضياع والهوان:

«نعم يا رسول الله!»

قال عليه الصلاة والسلام : «قد فعلت !»[1] .

وفي رواية بالاستيعاب والإصابة ، «أن النبي ﷺ سَبَى جويرية – ويعني أن يتزوجها – فجاءه أبوها فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فإن ابنتي لا يُسَبى مثلُها ، فخلِّ سبيلها . قال عليه الصلاة والسلام : «أرأيتَ إن خيَّرتُها ، أليس قد أحسنتُ ؟» قال : بلى . فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : اخترت الله ورسوله .

وقيل إن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به في فداء ابنته ، فلما سأله رسول الله ﷺ عنهما ، قال : «أشهد أنك رسول الله حقا»[2] فخطب إليه ابنته ، فزوجه إياها ، وكان صداقها أربعمائة درهم[2] .

* * *

(١) السيرة : ٣/٣٠٧ والنقل منها - والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبري ٣/٦٦ وترجمة جويرية في الاستيعاب ٤/١٨٠٤ ، والإصابة ٨/٤٣ ، وعيون الأثر ٢/٣٠٥ .

(٢) السيرة : ٣/٣٠٨ ، والسمط ١١٧ ، وعيون الأثر ٢/٣٠٥ .

بَركةُ العـــروس

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبي ضرار، فتداعَوا لتكريم السيدة التي أعزها نبيهم بالزواج.

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون: «أصهار رسول الله».

ودخلت العروس بيت النبي، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها: أُعتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ، أهلُ مائة بيت من بيوت بني المصطلق [1].

«وسماها ﷺ جويرية، كراهة أن يقال: خرج من عند برة» [2].

وظلت «جويرية» ما عاشت، تبارك تلك اللحظة السعيدة التي لقيته فيها، فنجت من العار، وأعتقت قومها من الأسر، وكرمت بالزواج من سيد البشر.

وكذلك ظلت «عائشة» تذكر تلك اللحظة، لكن في مرارة وألم، فتقول في صراحة مؤثرة:

«... وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت...» [3].

---

(١) السيرة: ٣/٣٠٧، وتاريخ الطبري: ٣/٦٦ والاستيعاب، والإصابة والسمط الثمين ١١٦.

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس: ٣/١٦٧٨ ح (٢١٤٠) وابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق، وابن حجر في الإصابة، من طريق مسلم.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وابن عبد البر في الاستيعاب، وابن حجر في الإصابة، عن ابن إسحاق.

وهل من حرج على الرسول في أن ينظر لجويرية؟

قال «السهيلي» في شرحه للسيرة الهشامية: «وأما نظره عليه السلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فانما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة. ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها... وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها... وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند ارادة نكاحها. وقال للمغيرة حين شاوره في نكاح امرأة:

«لو نظرتَ اليها، فإن ذلك أحرى أن يدوم بينكما. وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاك»[1].

وقد كان ما توقعت «عائشة» وخافت:

نظر ﷺ الى الأسيرة الحسناء، وأصبحت «جويرية بنت الحارث» شريكة لعائشة في بيت الرسول.

كما أصبحت، وقد أسلمت وحسن إسلامها، أما للمؤمنين.

على أن «عائشة» ما لبثت أن شغلت عن «جويرية» وغير جويرية، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بني المصطلق، من قيل وقال.

حتى اذا انجلت غمة الافك، وعادت عائشة الى بيت النبي معتزة بما أنزل الله في براءتها من آيات، واجهتها «جويرية» بملاحتها الأخاذة، فما كان من عائشة الا أن قالت في زهو وهي تنقل بصرها بين جويرية، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وحفصة، وطيف ماثل من خديجة:

«لم يتزوج، ﷺ، بكرا سواي».

---

(١) الروض الأنف ١٩/٣.

ذلك أن «جويرية» كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقي [1].

* * *

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية، وتوفيت بالمدينة بعد منتصف القرن الأول الهجري «سنة ست وخمسين على الأرجح وصلى عليها «مروان بن الحكم» أمير المدينة وقد بلغت سبعين سنة. وقيل: توفيت سنة خمسين، وهي بنت خمس وستين سنة».

رضي الله عن جويرية، أم المؤمنين التي «لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها».

* * *

(١) كذا في المحبر ٨٩، والاستيعاب: ١٨٠٤/٤ والإصابة ٤٣/٨ والسمط الثمين ص ١١٦، والذي في تاريخ الطبري (١٧٧/٣) انه ملك بن صفوان ذي الشفر بن سرح بن مالك ابن المصطلق.

(٢) الاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر ٣٠٥/٢ وتهذيب التهذيب ٤٠٧/١٢، والسمط ١١٨.

(٩)

صَفِيَّة بنت حُيَيّ

رضي الله عنها

عَقِيلة بني النَّضِير

«وأمر ﷺ بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه».

السيرة النبوية

وصحيح مسلم

خربت خيبر

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت في بيت النبي ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث ، وابتلي بمحنة الافك في أعز زوجاته ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة وفيها أيضا ، تم صلح الحديبية.

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة تقطع دابر اليهود اللئام الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر.

وخرج عليه الصلاة والسلام في النصف الثاني من المحرم [1] إلى «خيبر» معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى هتف :

«الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

وخربت خيبر : فُتِحَتْ حصونها حصنا حصنا ، وقُتِلَ رجالها ، وسبي نساؤها ، وفيهن عقيلة بني النضير «صفية بنت حُيي بن أخطب» التي ينتهي نسبها إلى هرون أخي موسى عليهما السلام ، وأمها برة بنت شموال - أو : سموأل -

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها .

لكنها ، على صغر السن ، تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : «سلام بن مشكم» .

ثم خلف عليها «كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق [2]» صاحب حصن

---

(١) كذا في السيرة ٣٤٢/٣ ، وتاريخ الطبري ، وعيون الأثر ١٣٠/٢ . وفي طبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت في جمادى الأولى.

(٢) كذا في السيرة ٣٥١/٣ وتاريخ الطبري ٩٥/٣ ، ١٧٨ ، والمحبر ٩٠ ، وعيون الأثر ٣٠٧/٢.
وفي طبقات ابن سعد ٧٧/٢ ، والاستيعاب ١٨٧١/٤ ، والإصابة ١٢٦/٨ : «كنانة بن أبي الحقيق» ولعله من رفع النسب إلى جدّه.

«القموص» أعز حصن في خيبر.

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال مرير، وجيء بكنانة حيا، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله ﷺ عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«أرأيتَ ان وجدناه عندك، أأقتلك؟».

قال: نعم...

فلما اكتُشِف مخبأ الكنز عنده، دفعه ﷺ إلى «محمد بن سلمة» فضرب عنقه بأخيه «محمود بن سلمة» الذي قتله اليهود في المعركة[1].

وسيقت نساء القموص سبايا، وفي مقدمتهن «صفية» امرأة كنانة، وابنة عم لها، يقودهما «بلال» مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومر بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود، فهمّت «صفية» أن تصيح، لكن الصيحة احتبست في حلقها لا تنطلق.

أما ابنة عمها فأعولت صارخة، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها...

وجيء بهما إلى رسول الله ﷺ:

«صفية» في حزنها الصامت وجزعها المكبوت، تحاول أن تتماسك في ترفع وكبرياء، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة وجلال.

والأخرى، شعثاء الشعر معفرة بالتراب، ممزقة الثياب، لا تكف عن عويل ونواح.

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٥/٣ والسيرة: ٣٥١/٣ - وانظر طبقات ابن سعد ٨١/٢.

قال وهو يشيح بوجهه عنها :

«اغربوا عني هذه الشيطانة» [١] .

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة في أكثر من حماية النبي الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

«أنُزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟» [٢] .

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك إعلاما بأنه ﷺ ، قدا اصطفاها لنفسه .

وكان المسلمون قد قالوا : ما ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد ، فلما حجبها عرفوا أنه ﷺ قد تزوجها .

وفي حديث عن «أنس رضي الله عنه» أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيي ، قال لها : «هل لك فيَّ؟ قالت : يا رسول الله... قد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف إذا أمكنني الله منه في الإسلام؟» .

فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها .

وكان عتقها صداقها [٣] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٩٤/٣ والسيرة ٣٥٠/٣ ، والإصابة ١٢٦/٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٩٤/٣ والسيرة : ٣٥١/٣ والإصابة ١٢٦/٨ وانظر طبقات ابن سعد : ٨١/٢ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٨٤/٢ ، والاستيعاب ١٨٧٢/٤ ، والإصابة ١٢٦/٨ والسمط الثمين : ١٢٠ ، وعيون الأثر ٣٠٧/٢ قال ابن حجر : «وثبت ذلك في الصحيحين» . وانظر صحيح مسلم : كتاب النكاح (ح : ١٣٦٥) .

رُؤيا العروس في ذكرياتها

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن «صفية» أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها إلى المنزل في أطراف خيبر - على بعد ستة أميال منها - فقال يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل[١] .

فوجدها - ﷺ - في نفسه ، وشق عليه تمنعُها ورفضها ، ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره إلى المدينة ، فلما كان بالصهباء - بعيدا عن خيبر - نزل هناك يستريح ، فبدا له أن «صفية» متهيئة للعرس :

جاءتها ماشطة - يقول ابن اسحق انها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس ابن مالك[٢] - فمشطتها وجملتها وعطّرتها . وظهرت «صفية» عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية ، إنها لم تر بين النساء أضوأ منها[٣] .

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التي ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن «القموص» ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وتَمت ، أقيمت وليمة العرس حافلة ، وأكل الناس من طيبات خيبر حتى شبعوا[٤] ، ثم دخل الرسول على «صفية» وما يزال في نفسه شيء من رفضها الأول .

وأقبلت عليه العروس بادية اللهفة تحدثه حديثا عجبا :

---

(١) السمط الثمين : ١٢٠ ، والإصابة ١٢٦/٨ .

(٢) السيرة : ٣٥٤/٣ واقتصر ابن سعد على كنيتها - أم سليم (٨٤/٢).

(٣) الاصابة ١٢٦/٨ .

(٤) صحيح مسلم : كتاب النكاح (ح ١٣٦٥).

قالت : إنها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت في المنام ان قمرا وقع في حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضباً :

«ما هذا الا أنك تُمنين ملك الحجاز محمدا !» [١] .

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ونظر الرسول إلى أثر اخضرار في عينها ، وقد سره ما سمع من حديثها ، وهمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

«ما حملك على الامتناع أولا ؟» أو قال : ما حملك على ابائك في المنزل الأول ؟

وأجابت العروس على الفور :

«خشيتُ عليك قربَ اليهود» [٢] .

فزال ما كان يجد في نفسه من جفوة ، وأشرق وجهه الكريم بابتسامة راضية .

وتسترجع صفية ، ذكريات لها عن ارهاص أهلها اليهود بنبي منتظر يعرفونه من أسفارهم ، ثم حقدهم وغيظهم يوم استقبلت دار الهجرة النبي المهاجر ، الذي طالما بشرت يهود بقرب مبعثه ، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من كل غاز وطامع ، أو تتفاخر بها على العرب الأميين ، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب .

تقول صفية بنت حيي بن أخطب :

«كنت أحبَّ ولد أبي اليه والى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما الا أخذاني دونه . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، غدا عليه أبي وعمي مغلّسين ، فلم يرجعا حتى ككان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين ساقطين يمشيان الهوينا . فهششت

---

(١) السيرة : ٣٥٠/٣ وتاريخ الطبري : ٩٤/٣ والسمط الثمين ١٢٠ وفي رواية بالإصابة ، أنها قصت رؤياها على أمها عن ابن إسحاق في رواية يونس بن بكير وفي عيون الأثر ، أنها قصتها على أبيها .

(٢) الإصابة ١٢٦/١ .

اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو؟

«قال : نعم والله . قال عمي : أتعرفه وتثبته؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه؟ أجاب : عداوته والله ما بقيت» [1] .

وهناك خارج القبة التي دخل فيها الرسول على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو «أبو أيوب خالد بن زيد» يقظان ساهرا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرسول ، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

«مالك يا أبا أيوب؟»

أجاب :

«يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك» .

فيقال ان الرسول دعا له قائلا :

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»

أو قال : «رحمك الله يا أبا أيوب» مرتين [2] .

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، تلك الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود خيبر ، هي «زينب بنت الحارث» امرأة سلاَّم بن مِشكم ، أحد زعمائهم القواد .

دخلت «زينب» هذه على الرسول وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت اليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أي عضو من الشاة أحب الى رسول الله؟ قيل لها : الذراع . فأكثرت السم

---

(١) السيرة ١٦٥/٢ ووفاء الوفا ٢٧٠/١ .

(٢) السيرة : ٢٥٤/٣ - وطبقات ابن سعد : ٨٤/٢ .

في الذراع حتى سرى منها الى سائر الشاة.

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه «بشر بن البراء»، فتناول الرسول الذراع، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب.

لكن الرسول لم يسغ الذراع، بل لفظها وهو يقول: «ان هذا العظم ليخبرني انه مسموم».

ودعا بامرأة سلاَّم، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة. ولما سألها ﷺ عما حملها على ذلك أجابت:

«بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك، فقلتُ: ان كان نبيا فسيُخبَر، وان كان ملكا استرحت منه».

فتجاوز عنها الرسول، ومات «بشر بن البراء» من أكلته التي أكل... [1].

فلعل «أبا أيوب الأنصاري» ذكر هذه الفعلة اليهودية، حين بات ساهرا حول القبة التي دخل فيها ﷺ على «صفية» عقيلة بني النضير.

* * *

وبلغ الركب المدينة. وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «فعثرت الناقة الضباء، وندرت صفية فقام ﷺ فسترها، وقد أشرفت النساء فقلن: أبعد الله اليهودية» [2].

وآثر النبي ألا يدخل بالعروس على نسائه، «وقد خرجت جواريهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها» [3]، فأنزلها في بيت لصاحبه «حارثة بن النعمان».

---

(١) السيرة: ٣٥٢/٣، وتاريخ الطبري ٩٥/٣.

وأخرجه مسلم، بلفظ مقارب، من حديث أنس رضي الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) ١٧٢١/٤ وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التي أهديت الى الرسول ﷺ يوم فتح خيبر، عن أبي هريرة... وفيه ان الذين سموها وأهدوها، جماعة من اليهود (٨٤/٢).

(٢، ٣) صحيح مسلم ١٠٤٨/٢: ح (١٣٦٥).

وتسامعت نساء الأنصار بها، فجئن ينظرن الى جمالها، ولمح الرسول زوجته «عائشة» تخرج متنقبة على حذر، فتتبع خطواتها من بعيد، فرآها تدخل بيت حارثة ابن النعمان.

وانتظر حتى خرجت، فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا:

«كيف رأيت يا شقيراء؟».

فأجفلت عائشة، وقد هاجت غيرتها، ثم هزت كتفها وهي تجيب:

«رأيت يهودية!»

ورد عليها الرسول:

«لا تقولي ذلك، فإنها أسلمت وحسن إسلامها!»[1].

ولم تعلق «عائشة» بكلمة، بل سارت الى البيت حيث كانت حفصة في انتظارها، مشوقة إلى أن تسمع رأيها في العروس.

ولم تنكر «عائشة» أنها جميلة حقا، ولعلها زادت فحدثت «حفصة» عما كان من تتبّع الرسول لها وحواره معها.

---

(١) ابن سعد في طبقاته، وابن حجر من طريقه في الإصابة، والسمط ٨٠.

زوجي محمّد وأبي هارون - وعمّي موسى

ثم انتقلت «صفية» إلى دور النبي، فواجهتها هناك مشكلة محيرة: كانت عائشة ومعها حفصة وسودة في جانب، والزوجات الأخريات في جانب تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء، رضي الله عنهن.

وكان على «صفية» أن تختار، وإنه لموقف دقيق صعب، فما كانت في ذكائها بالتي تناصب «الزوجة الأثيرة» أو «الابنة الغالية» عداء أو شبه عداء!

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث، فقررت أن تتقرب من عائشة وحفصة والزهراء جميعاً!

وكان مظهر تقربها إلى ابنتي أبي بكر وعمر، إظهار استعدادها للانضمام اليهما...

وأما «الزهراء» فأهدتها «صفية بنت حيي» حلية لها من ذهب، رمزاً لمودتها واعلاناً لمسالمتها! [(١)].

ولعل «صفية» أرادت أن تحتمي بهذا الموقف اللبق، مما كانت تخاف من تعريض بأصلها اليهودي، وتذكير بما بين قومها والإسلام من عداء مستحكم مرير.

وما كان لها، في الحق، أن تخشى أذى من «الزهراء» فانها - رضي الله عنها - كانت أحرص الناس على سلام، وأبر بأبيها من أن تشارك في هذا الضجيج النسوي، اللهم الا أن تدفع الى شيء من ذلك دفعاً، كالذي أشرنا إليه من سفارتها لزوجات النبي عند أبيها ﷺ في أمر السيدة عائشة.

---

(١) الإصابة: جـ ١٢٧/٨.

وإنما الخوف كل الخوف من «عائشة» في غيرتها العارمة، وضيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه!

ولم يعصم «صفية» مما كانت تخاف، تقربها من عائشة وحفصة، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودي الذي يجري في عروقها؟! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن، في ظلّ أكرم زوج!

والذي آلم «صفية» ان عائشة وحفصة – اللتين انضمت إليهما – كانتا تشاركان الأخريات في النيل منها، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات، وهي الأجنبية الدخيلة.

* * *

وبلغ «صفية» كلام عن حفصة وعائشة، فلما حدثت النبي به وهي تبكي، قال ﷺ:

«ألا قلت: وكيف تكونان خيرا مني، وزوجي محمد، وأبي هرون، وعمي موسى؟» (١)

ونزل كلام الرسول على «صفية» بردا وسلاما، وكان لها منه حمى وملاذ.

* * *

وكان النبي ﷺ، يحسّ غربة «صفية» في دوره بين نسائه، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة.

حدثوا أنه كان في سفر ومعه «صفية» و«زينب بنت جحش» فاعتل بعير «صفية» وفي ابل زينب فضل، فقال لها:

---

(١) الإصابة ١٢٧/٨ والنقل منها .. والاستيعاب ١٨٧٢/٤، والسمط ١٢١.

«ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا؟»

أجابت في ترفع وازدراء :

«أنا أعطي تلك اليهودية؟».

فولى الرسول عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل «فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد الى ما كان عليه معها» (١) .

ولم تحرم «صفية» هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام. رُويَ أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ في مرضه الأخير ، فقالت صفية : إني والله يا نبي الله ، لوددت أن الذي بك بي . فما كان من أزواجه إلاَّ أن غمزن ببصرهن فما راعهن الا أن قال عليه الصلاة والسلام :

«مَضْمِضْنَ» !

تساءلن في دهشة : من أي شيء؟

قال : «من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة» (٢) .

* * *

ولحق الرسول بربه الكريم ، وافتقدت «صفية» تلك الحماية الطيبة ، فما نسي الناس لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من مهاجمتها من تلك الثغرة التي لم يكف لسدِّها حسنُ إسلام صفية ، وزواجها من النبي عليه الصلاة والسلام .

حدثوا أن جارية لها أتت «أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» فقالت : «يا أمير المؤمنين ، ان صفية تحب السبت وتصل اليهود» .

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة ، بسنده إليها . وابن حجر في ترجمة صفية بالإصابة ، من طريق ابن سعد .

(٢) ابن سعد في الطبقات ، بسند عن زيد بن أسلم . وابن حجر في الإصابة ، من طريقه .

فبعث «عمر» الى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :

«أما السبت فاني لم أحبه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فان لي فيهم رحما فأنا أصِلُها ! »

ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عمّا حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : «الشيطان ! »

وردت «صفية» :

«اذهبي فأنت حرة»[1] .

* ** *

واندفعت «صفية» راضية أو كارهة ، تشارك في المعركة السياسية التي بدأت في عهد «عثمان» وكان موقفها اذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشة التي كانت حينذاك ذات نفوذ سياسي قوي ، ومكانة في الدولة الاسلامية رفيعة ، لم تأل «صفية» جهدا في الولاء لأمير المؤمنين «عثمان» الذي ما فتئت «عائشة» تحرض عليه ، حتى بلغ بها الأمر أن دلّت قميص رسول الله من بيتها وصاحت في المسلمين :

«أيها الناس ، هذا قميص رسول الله لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته ... »

حدث مولى لصفية يدعى كنانة - وقيل هو ابن أخيها - قال :

«قدمت صفية ، في حجابها ، على بغلة لترد عن عثمان ، فلقينا الأشتر — هو النخعي — فضرب وجه البغلة ، وهو لا يعرف راكبتها ، فقالت لي صفية :

- ردني لا تفضحني !

---

(١) رواه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب ١٨٧٢/٤ ، وابن حجر في الإصابة ١٢٧/٨ من طريقه والسمط ١١٢ .

ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء » وهو في محنة الحصار[1] .

وماتت «صفية» حوالي سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ...

ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين...

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج في الكتب الستة ، .ومن الذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والامام زين العابدين علي بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ، في عدد من حفاظ التابعين رضي الله عنها وعنهم.

* * *

(١) ابن سعد في الطبقات. حكاه ابن حجر في آخر ترجمتها بالإصابة.

(١٠)

أم حبيبة رضي الله عنها
بنت أبي سفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » ... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه. فقال : يا بنية ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه »

ابن إسحاق : السيرة النبوية

عودة المهاجرة

رجع النبي ﷺ إلى مدينته، وقد تمَّ له النصر في «خيبر»، وتزوج عقيلة بني النضير، وسيقت بين يديه غنائم اليهود.

وتأهبت «المدينة» للقائه، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه!

فهناك في «المدينة»، وهو ﷺ غائب في خيبر، كان مهاجرو الحبشة قد جاءوا في صحبة «عمرو بن أمية الضمري» الذي بعثه النبي عليه الصلاة والسلام إلى «النجاشي» ليعود بمن بقي في بلاده من المهاجرين الأولين [(١)].

وحملهم «عمرو» في سفينتين، فبلغ بهم «المدينة» حيث الأهل والأنصار، ومعركة «خيبر» اذ ذاك في ذروة احتدامها.

وأعقب وصولَهم اعلانٌ فتح «خيبر» والنصر المبين على يهودها، وخرج أهل «المدينة» لاستقبال العسكر المنتصر، فضاقت بهم أرجاء الوادي، وقد بُحَّت أصواتهم من هتاف ودعاء.

وأهلَّ عليهم ﷺ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من «مكة» أيام الاضطهاد والعذاب، أولئك الذين كان آخر عهده — ﷺ — بهم، يوم تسللوا من «مكة» أيام المحنة، خارجين من ديارهم وأموالهم في سبيل الله، وأقصى ما يتمناه أحدهم ان يموت على الاسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة.

وكانوا رضي الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء في الدار الآخرة، حيث النعيم الذي وُعد به المؤمنون، وها هم أولاء يلتقون في أرض الوطن، يوم الاحتفال بفتح خيبر،

---

(١) تاريخ الطبري: ٨٩/٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/٤.

وقد صارت للاسلام الكلمة العليا في جزيرة العرب!

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته، فالتزم ابن عمه «جعفر بن أبي طالب» معانقا، وقبل عينيه وهو يقول في غبطة:

«ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟»[1].

والتفت الرسول من بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين، وقد كانوا فيما أحصى «ابن اسحق» ستة عشر رجلا[2].

وهناك بين المهاجرات العائدات، كانت «أم حبيبة، بنت أبي سفيان بن حرب» تنتظر النبي ﷺ، ليحملها إلى بيته!

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين، مذ كانت في مهاجرها بالحبشة.

فلنمض مع الأحداث، راجعين بها إلى بدايتها هنالك...

(١ و ٢) السيرة: ٣/٤، ٥ وتاريخ الطبري: ٩٠/٣.

محنة الغربة

كانت «رملة» بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، زعيم مكة وقائد المشركين، زوجة لابن عمّة الرسول، عبيد الله بن جحش الأسدي، أخي السيدة زينب أم المؤمنين. وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه «رملة»، وأبوها «أبو سفيان» على الكفر.

وخشيت أذى أبيها، فهاجرت بدينها مع زوجها في الهجرة الثانية إلى الحبشة وهي مثقلة بحملها، وتركت أباها «بمكة» وقد جن غيظه وقهره، أن أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل. وهناك في الحبشة، وضعت «رملة» بنتها «حبيبة بنت عبيد الله» التي كنيت بها فصارت تدعى «أم حبيبة».

وإذ هي في غربتها تكتم حنينها إلى الوطن، وتحاول أن تجد في زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة، فقد روعت في الحلم برؤية «عبيد الله» بأسوأ صورة، فأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذي من أجله هاجر إلى الحبشة، ودخل «النصرانية» دين الأحباش...

وحاول أن يردها عن دين الاسلام فصبرت على دينها [1].

وكادت «بنت أبي سفيان» تهلك غما وأسى وحسرة:

فيم كانت هجرة عبيد الله اذن، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب، ومرارة التنكر للآباء والأجداد، وهذا هو يصبأ عن الإسلام الذي من أجله احتملت «رملة» كل ذلك، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم؟

---

(١) ابن سعد في الطبقات، وابن حجر في ترجمتها بالإصابة ٨/٨٤، عنه. والسمط ٩٦.

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعا عن ديانة وجدوا آباءهم عليها من قديم الحقب.

أما أن يكفر بهذا كله ، ويرضى بالاسلام دينا ليجيء إلى الحبشة فيكفر بالدين الجديد ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، في يُسْر ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأي عار!

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكي تولد لمثل هذا الأب الصابئ المرتد؟ وما جريرتها لتخرج إلى الحياة في أرض غريبة ، وقد انبتٌ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلَها دياناتٌ شتى : فأبوها نصراني ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الاسلام!

واعتزلت «رملة» الناس شاعرة بالخزي لفعلة الرجل الذي كان لها زوجا ، ولطفلتها والدا...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها «حبيبة» مضاعَفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس في دار هجرتها ، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا شعواء على النبي الذي صدقته وآمنت به...

وأين تراها تقيم في «مكة» لو عادت؟

أفي بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت؟

أم في دار «آل جحش» رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن عتبة بن أبي ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة ، مروا بدار بني جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

«وكـــل دار وإن طـــالت سلامتها   يوما ستدركها النوباء والحوب!

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها».

فقال أبو جهل: «وما تبكي عليه؟»... ثم قال:

«هذا عمل ابن أخي، فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا»[1].

كلا، لا سبيل لرملة إلى «مكة» والمعركة محتدمة بين أبيها والنبي ﷺ، ودار بني جحش تخفق أبوابها يبابا!

---

(١) السيرة: ٢/١١٥.

رسالة من الحجاز

ومرت حقبة من الزمن وهي في عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم الا وطرقات تلح على بابها الموصد ، مستأذنة لجارية من جواري النجاشي...

وفتحت «أم حبيبة» الباب ، فدخلت الجارية وأدت اليها رسالة النجاشي :

«ان الملك يقول لك : وكّلي مَن يزوجك من نبي العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له !» .

واستعادت «رملة» حديث الجارية مرة ومرتين وثلاثا ، حتى اذا استيقنت من البشرى نزعت سوارين لها من فضة فقدمتهما إليها حلاوة البشرى [1] ، ثم أرسلت الى «خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس» –كبير المهاجرين من قومها بني أمية– فوكلته في زواجها.

وفي المساء ، دعا النجاشي إليه مَن بالحبشة من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر ابن أبي طالب ، ابن عم النبي ﷺ ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة...

وتكلم النجاشي وترجم المترجم :

«ان محمد بن عبد الله كتب لي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فمن أولاكم بها ؟» .

أجاب القوم :

«خالد بن سعيد ، قد وكّلته» .

---

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضي الله عنها. وحكاه ابن حجر في ترجمة «رملة» بالإصابة ٨/٨٤. والسمط الثمين ٦٧.

فاتجه اليه النجاشي قائلا :

«فزوّجْها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار» – وقيل : أربعة آلاف – فقام خالد وقال :

«قد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله ﷺ ، وزوجته أم حبيبة»...

وقبض الصداق.

وأولم لهم النجاشي وليمة الزواج قائلا : «اجلسوا ، فان سنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج»[1].

ثم أتوا باب «أم حبيبة» مهنئين مباركين.

وباتت بنت أبي سفيان ، وهي «أم المؤمنين» !

وأصبحت فجاءتها «جارية النجاشي» تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت إليها «أم المؤمنين» خمسين دينارا من صداقها قائلة :

«كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدي شيء من المال ، وقد جاءني الله عز وجل بهذا».

فأبت أن تمسّ الدنانير، وردّت السوارين وهي تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن اليها مما عندهن من طيب.

وتقبلت «أم حبيبة» الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبي ، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر: ١٩٣٠/٤ والمحبر ٨٨ ، والإصابة ٨٤/٨. وفي رواية بها ، أن الذي زوّجها : عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية. وهو خال رملة ، أخو أمها «صفية بنت أبي العاص بن أمية. ولعله الذي زفها إلى النبي ﷺ ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة. والله أعلم.

بين الأب والزوج

واحتفلت «المدينة» بدخول بنت أبي سفيان بيت النبي ﷺ.

وأولم خالُها «عثمان بن عفان» وليمة حافلة، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم.

وباتت «مكة» ساهدة مؤرقة، تردد قول زعيمها أبي سفيان والد أم حبيبة، حين بلغه نبأ زواجها:

«هذا الفحل لا يُجدع أنفه!»[1].

ولم يكن قد مضى على زواجه، ﷺ، من عقيلة بني النضير، غير أيام معدودات!

واستقبلت نساء النبي زميلتهن «أم حبيبة» بشيء من المجاملة، ولم ترَ «عائشة» فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها، إذ كانت «رملة» تدنو من عامها الأربعين، وليس لها سحر صفية، ولا ملاحة جويرية، ولا حسن أم سلمة، ولا جمال زينب...

وأبدت «عائشة» استعدادها لقبول الزوجة الجديدة في صفّها، لكن «بنت أبي سفيان» أنفت أن تكون تابعة لأخرى...

وبقدر ما أنكرت «عائشة» ألا تسارع «رملة» إلى كسب رضاها كما فعلت «حفصة بنت عمر»، أنكرتْ «بنت أبي سفيان» على «عائشة» الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ في بيت النبي...

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة، وإن بقيت

---

(١) تاريخ الطبري: ٩٠/٣؛ والسمط الثمين: ٩٩ - والاستيعاب ١٨٤٥/٤ ونسب قريش ١٢٢، والإصابة ٨٥/٨.

« عائشة » تهاب « رملة » وتخشى وقوفها في سبيل ما تشتهي من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا ان ظلت تحس في أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالّة .

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

* * *

وتناهى إليها يوماً أن قريشا نقضت عهد « الحديبية » وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته ، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدر به أو ينقض له عهد ، فهل تراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين ، وفيهم أبوها ، وإخوتها ، وكل أهلها وعشيرتها ؟

كذلك لاحت نذر الخطر في « مكة » فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر « محمد » الذي يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به . لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الأكبر في بلاد العرب ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم إلى المدينة يفاوض محمدا — ﷺ — في تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » الا أن يذعن ، وأنى له أن يعتذر وهو الذي أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ؟ ... فليصلَ اليوم حرَّها ، وليمضِ الى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة !

وخرج «أبو سفيان» صاغرا مكرها يريد المدينة ، فلما بلغها أشفق من لقاء «محمد» وذكر أن له ابنة هناك في بيت خصمه ، فتسلل اليها يستعين بها على ما جاء من أجله.

وفوجئت به «أم المؤمنين» يدخل بيتها ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول...

وأدرك «أبو سفيان» ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش ، فما راعه الا أن وثبت «رملة» فاختطفت الفراش وطوته في اعزاز ، ثم وقفت تلهث.

سألها وهو يلوذ بالصبر:

«أطويته يا بنية رغبة بي عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عني؟».

وجاءه جوابها :

«هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه!».

قال والألم يفري كبده :

«لقد أصابك يا بنية بعدي شر»[1].

وانصرف غاضبا...

واستندت هي على جدار بيتها ، عصية الدمع ، معطلة الحواس.

حتى جاء رسول الله أخيرا فعرفت ما كان من أمر «أبي سفيان» :

ذهب إلى النبي ﷺ فكلمه في العهد فلم يجبه بشيء...[2].

---

(١) السيرة : ٣٨/٤ ، وابن سعد في الطبقات ، والإصابة ، عنه.

(٢) السيرة : ٣٨/٤ وتاريخ الطبري : ١١٢/٣ والسمط الثمين : ص ١٠٠.

فتوسل بأبي بكر الى الرسول لكن أبا بكر رفض...

فكلم «عمر بن الخطاب» فرد عليه في غلظة وجفاء:

«أنا أشفع لكم الى رسول الله؟.. فوالله لو لم أجد الا الذر لجاهدتكم به!» [1].

وانطلق أبو سفيان إلى بيت «علي بن أبي طالب» وعنده فاطمة بنت رسول الله، وولدها الحسن يدب بين يديها، فقال: «يا علي، إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً، واني قد جئت في حاجة... فاشفع لي الى محمد».

أجاب «علي»:

«ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه».

فالتفت أبو سفيان الى السيدة فاطمة وسأل في ضراعة:

«يا ابنة محمد، هل لك أن تأمري بنيّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر؟».

أجابت رضي الله عنها:

«والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ».

واذ سدت السبل في وجهه، التمس نصيحة ابن عم الرسول، عليّ بن أبي طالب، فقال كرم الله وجهه:

«والله ما أعلم شيئا يغني عنك شيئا، لكنك سيد بني كنانة. فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. وما أظن ذلك مغنيا، ولكني لا أجد لك غيره» [2].

---

(١) تاريخ الطبري: ١١٢/٣.

(٢) السيرة: ٣٨/٤ وتاريخ الطبري: ١١٢/٣.

فذهب «أبو سفيان» الى المسجد ، وهناك أعلن انه اجار بين الناس ، ثم أسرع الى راحلته وانطلق بها يعدو في طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد...

سمعت «أم المؤمنين» ما جرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها الرسول بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبة للمعركة الحاسمة في البلد الحرام.

ولعل نساء النبي راقبنها وهي في موقفها ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال في حيرة من الأمر ، تستمع لما كان من أمر أبي سفيان الذي رجع من وفادته خائبا على غير قرار ، يقول :

«جئت محمدا فوالله ما رد عليَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو»[1].

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ، دقيقا أشد الدقة ، فانتصار محمد - ﷺ - يعني القضاء على أبيها وعشيرتها ، وإن «أم المؤمنين» لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به؟.. وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذي ينتظرهم؟ ! كلا ، بل إن عَنَتهم عزيز عليها ، مثلما هو عزيز على رسول الله ﷺ .

وإذ هي في حيرتها المضنية ، لاح لها شعاع من الأمل :

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان ، كما أسلم عمر بن الخطاب وأخوها معاوية ، وخالد ابن الوليد ، وأبو العاص بن الربيع ، زوج السيدة زينب كبرى بنات النبي ﷺ ؟..

انه لأمل واهٍ ، أقرب الى أن يكون سرابا ، ولكنها تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع ، فتوجهت إلى السماء ، تدعو الله أن يهدي أبا سفيان إلى الاسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت ما نزل من آي الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله :

(١) السيرة : ٣٩/٤ وتاريخ الطبري : ١١٣/٣ .

«عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذي عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم»[1].

وكان هذا أقصى ما تملك «أم المؤمنين ، بنت أبي سفيان» لأبيها وأهلها...

على حين بلغ الجزع برجل من صحابة النبي الذين شهدوا بدرا ، أن بعث كتابا مع امرأة من «مكة» تدعى «سارة» ووعدها مكافأة سخية اذا هي أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذي يوشك أن يدهمهم[2].

وعلم النبي ﷺ بكتاب صاحبه «حاطب بن أبي بلتعة» فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركا «سارة» وما زالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها.

ودعا النبي اليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك. قال حاطب:

«يا رسول الله ، أما والله اني لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم».

فوثب به «عمر بن الخطاب» واستأذن الرسول في أن يضرب عنقه ، لكنه ﷺ حال دونه ، إذ كان أحد أصحاب «بدر»[3].

وانما جئت بحديث «حاطب» هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على «أم المؤمنين بنت أبي سفيان» حين رأت زوجها الرسول وهو خارج في عشرة آلاف مقاتل يريد «مكة»!

* * *

---

(١) السمط الثمين: ١١٠ والآية من سورة الممتحنة «٧».

(٢) سيرة ابن هشام: ٤٠/٤ - والإصابة: حاطب بن أبي بلتعة.

(٣) السيرة: ٤١/٤.

وتم الفتح...

وطارت البشرى إلى «المدينة» بما أفاء الله على رسوله من نصر...

وتسامعت «دار الهجرة» بما كان من لقاء النبي ﷺ، بأبي سفيان، الذي أرسلته مكة حين رأت نيران العسكر الغازي تتوهج قريبا منها، ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام.

وعرف «العباس بن عبد المطلب» أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر:

«ويحك يا أبا حنظلة، هذا رسول الله في الناس، واصباحَ قريشٍ إذا دخل مكة عنوة! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك»[1].

قال أبو سفيان:

«فما الحيلة فداك أبي وأمي؟».

فأردفه «العباس» وراءه، وسار به خلال المعسكر، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقي الرعب في قلوب المشركين.

فلما مرا بنار «عمر بن الخطاب» عرف أبا سفيان فأسرع الى خيمة النبي مستأذنا في أن يضرب عنقه...

وجاء العباس، على أثره فقال: «إني يا رسول الله قد أجرته».

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام:

«اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحتَ فائتني به».

وقضى «أبو سفيان» ليلته مؤرقا يترقب حكم «محمد بن عبد الله» في كبير قريش.

---

(١) السيرة: ٤/٤٥ - وتاريخ الطبري: ٣/٤٠ - طبقات ابن سعد: ٢/٩٨.

فلما كان الصبح جيء بأبي سفيان إلى حضرة النبي ﷺ، وفي مجلسه كبار المهاجرين والأنصار[1].

وتكلم النبي ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟»

قال: «بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى شيئا بعد!».

قال النبي ﷺ:

«ويحك يا أبا سفيان: ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟»

قال «ابو رملة»:

«بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه، فوالله إن في النفس منها حتى الآن شيئاً!»

ولكن «أبا سفيان» ما لبث أن أعلن اسلامه...

فالتمس «العباس» من النبي ﷺ ان يكرم الرجل بشيء يرضي كبرياءه، فأجاب النبي الكريم:

«نعم... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»[2].

وبعث أبو سفيان من نادى في مكة.

«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن...»

---

(١) السيرة: ٤/٤٥ - وتاريخ الطبري: ٣/٤٠.

(٢) السيرة: ٤/٤٦ وتاريخ الطبري: ٣/١١٧ وطبقات ابن سعد: ٢/٩٨.

فما زالت أصداء الهتاف تنتقل في الأفق حتى بلغت سمع «أم حبيبة» فهتفت وقد هزها الفرح :

«من دخل دار أبي فهو آمن !»

ألا ما أكرم زوجها الرسول ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة...

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل نساء النبي ﷺ...

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها «عائشة» ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة.

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت في غلوائها أو اشتطت في اعتدادها بمكانتها.

حتى إذا حان الرحيل ، دعت إليها «عائشة بنت أبي بكر» فقالت لها وهي تحتضر :

«قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحلليني من ذلك؟»

أو قالت : «قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك».

فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضاء وجهها الشاحب بنور الرضا وهمست :

«سررتني سرّك الله».

وفعلت مثل ذلك مع «أم سلمة بنت زاد الركب»[1].

ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب ، في المدينة المنورة في عهد سنة أربع وأربعين على الأرجح .

ولها في الكتب الستة خمسة وستون حديثا ، روت عنها بنتها حبيبة ربيبة رسول الله ﷺ ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبي سفيان وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة ، وعروة بن هشام بن المغيرة ، وأبو صالح السمّان ، وزينب بنت أبي سلمة ربيبة النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[2] .

---

(١) أخرجه ابن سعد ، من حديث عائشة رضي الله عنها . وابن حجر في ترجمتها بالإصابة ، من طريق ابن سعد ، والسمط ١٠١ .

(٢) الإصابة ٨/٨٥ ، وتهذيب التهذيب ١٢/٤١٩ ، وخلاصة التذهيب ٤٢٣ .

(١١)

مارية القبطية

أم ابراهيم

«استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً»

حديث شريف

(صحيح مسلم)

هدية من مصر

وغير بعيد من بيت النبي، في منزل خاص، كانت تقيم سَرِية للنبي ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين، ولكنها حظيت دونهن جميعا بشرف أمومتها لابنه ابراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها، مثلهن، بشرف الصحبة [١].

وهي لم تقم في دور النبي الملحقة بالمسجد، إلا أن أثرها في هذه الدور وساكناتها كان جد بعيد.

فمن تكون هذه السرية؟ وكيف دخلت حياته ﷺ؟ وأي موضع كان لها في هذه الحياة؟

* * *

في قرية من صعيد مصر، تدعى «حفن» قريبة من بلدة «أنصنا» [٢] الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين، ولدت «مارية بنت شمعون» لأب قبطي، وأم مسيحية رومية.

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل في مطلع شبابها الباكر مع أختها «سيرين» الى قصر «المقوقس» عظيم القبط.

وقد سمعت هنالك بما كان من ظهور نبي في جزيرة العرب يدعو الى دين سماوي جديد، وكانت في القصر حين وفد «حاطب بن أبي بلتعة» موفدا من هذا النبي العربي يحمل رسالة إلى المقوقس.

---

(١) الاستيعاب ١٩١٢/٤، الإصابة: ١٨٥/٨ (قسم أول).

(٢) سيرة ابن هشام: ٧/١ وراجع معه القاموس الجغرافي لرمزي جـ ١ ط دار الكتب المصرية - وللاستاذ حفني ناصف، بحث في «موطن مارية القبطية من الديار المصرية» قدمه الى مؤتمر المستشرقين بأثينا عام ١٩١٥ - رحمه الله.

وأذن في الدخول ، فأدى الرسالة :

«بسم الله الرحمن الرحيم.

«من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك اثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون»[1] .

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه في عناية وتوقير ، ووضعه في حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه .

والتفت من بعد ذلك إلى «حاطب» يسأله أن يحدثه عن النبي - ﷺ - ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

«قد كنت أعلم أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعني» وضنَّ بملكه أن يفارقه .

ثم دعا بكاتبه فأملى عليه رده :

«... أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام...

«وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم ، وبكسوة ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك»[2] .

(١ و ٢) تاريخ الطبري ٣/٨٥ والمحبر ٩٨ ، وعيون الأثر ٢/٢٦٦، والنقل منه وفي الهدية ، عند ابن سعد : الحمار عفير، أو يعفور حكاه ابن حجر في ترجمة مارية بالإصابة .

ودفع «المقوقس» كتابه إلى «حاطب» معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم، وموصيا اياه بأن يكتم مادار بينهما، فلا يسمع القبط منه حرفا واحدا.

وانطلق «حاطب» عائدا إلى النبي ﷺ، ومعه «مارية» وأختها «سيرين» وعبد خصي، وألف مثقال ذهبا، وعشرون ثوبا لينا من نسيج مصر، وبغلة شهباء (دلدل) وجانب من عسل «بنها» وبعض العود والند والمسك.

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن، فسارتا تملآن أعينهما من الوادي الحبيب، حتى إذا غابت عنهما آخر معالمه، ألقتا نظرة وداع دامعة، على الأرض التي حُلّت فيها تمائمها، ودرج عليها صباهما.

وأحس «حاطب» ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق، ويروي لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرون لا عداد لها، ثم انثنى يتحدث عن النبي ﷺ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للاسلام ونبيه الكريم.

واستغرقها التفكير في الحياة الجديدة التي توشك أن تستقبلها، وفي السيد النبي الذي ينتظر في «المدينة» رجوع صاحبه «حاطب» برد المقوقس. وفي الإصابة، من طريق ابن سعد، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه، فأسلمت هي وأختها.

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبي ﷺ من «الحديبية» بعد أن عقد المهدنة مع قريش.

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس، وهدية مصر...

وأعجبته «مارية» فاكتفى بها، ووهب أختها «سيرين» لشاعره «حسان بن ثابت».

وطار النبأ إلى دور النبي، أن شابة مصرية حلوة، جعدة الشعر، جذابة الملامح، قد جاءت من أرض النيل هدية للنبي ﷺ فأنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان، قرب المسجد.

وتكلفت «عائشة» ما استطاعت من جهد، لكي تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة، أهداها سيد الى سيد.

لكنها راحت ترقب في كثير من القلق، مظاهر اهتمام الرسول بتلك المصرية الطارئة، وقد أثار جزعها أن تراه ﷺ يكثر من التردد عليها، ويمكث لديها طويلا «فكان عامة الليل والنهار عندها» في ساعات فراغه [1].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث السيدة عائشة، وذكره ابن حجر في الإصابة من طريق ابن سعد.

طيفٌ وأمَل

ومضى عام أو نحو عام ، و«مارية» سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، عليه الصلاة والسلام قد اطمأن بها المقام في كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب ، شأن أمهات المؤمنين.

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله في شخص ذلك السيد العظيم الذي ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه.

وكانت تحمل في كيانها سحر مصر ، وفي أعطافها أريج الوادي العطر ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة ، لايزيس في حبها العبقري ، ونفرتيتي في جمالها الباهر ، وحتشبسوت في ملكها العتيد ، وكليوباتره في جاذبيتها الآسرة...

ولم يَغِض أبدا ذلك النبع الدافق الذي كان يمدها في كل آن بعذب الحديث وشهي السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة «هاجر» زميلتها المصرية التي جاءت من أرض النيل ، وحملت من سيدها «ابراهيم» فأثارت غيرة زوجته السيدة «سارة» فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق ، حيث تركها هنالك : وحيدين بواد غير ذي زرع عند أطلال البيت المحرم العتيق.

وطالما شاق «مارية» أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التي هدت «هاجر» إلى نبع زمزم ، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت «هاجر» ملء التاريخ ، وصارت هرولتها ومسعاها بين الصفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

وألفت «مارية» حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر في «هاجر» ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب ، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت

«هاجر» هبة من سارة للنبي ابراهيم عليه السلام، كما أن «مارية» هبة من المقوقس للنبي محمد ﷺ وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات في بيت السيد النبي، ابراهيم، أو محمد، صلوات الله عليهما.

ولكن «هاجر» كانت أما لولد ابراهيم، فهل تغدو «مارية» أما لولد محمد؟!...

ما أبعد الأمنية، بل ما أدناها من المستحيل!..

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة، عشر زوجات، منهن الشابة الفتية، والمرأة الناضجة، ومنهن من كانت ذات ولد. ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للنبي الذي تخطف الموت أبناءه من خديجة، فلم يدع له سوى ابنة واحدة، هي السيدة «فاطمة الزهراء».

وقد شارف الستين من عمره، وبدا كأنه كف عن تمني الولد، بعد سنين مجدبة، مع زوجات ذوات عدد.

فأنى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل؟

يا لها من أمنية أبعد من الوهم، ويا له من أمل أوهى من السراب!

---

(١) ابن هشام: ٧/١.

بشـــرى

استقبلت «مارية» عامها الثاني في حياة النبي ﷺ، وما تكفّ عن ذكر هاجر، واسماعيل، وابراهيم.

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها، وخيل إليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الامومة، وتفكيرها الدائم في هاجر واسماعيل.

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهي في ريب من الأمر، لا تدري أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام... حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم.

هنالك أفضت به إلى اختها «سيرين» فأكدت لها أن ليس في الامر وهم ولا شبه وهم، وإنما هو جنين حي.

وأخذ «مارية» من الانفعال والفرح ما قرُب وما بعُد، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا، وتحقق أملها الذي بدا عقيما واهيا كالسراب.

واستغرقتها نشوة حالمة، حتى جاء السيد الرسول، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذي تجنه أحشاؤها.

ويتذكر ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها في الطعام، وهي أعراض عرفها من قبل في «خديجة» في مستهل كل حمل، لكنه حسبها في «مارية» وعكة طارئة لا تلبثُ أن تزول.

ورفع إلى السماء وجها مشرق الاسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل الذي منّ به على عبده الرسول، إثر فقده ابنته الغالية «زينب» بعد أن ماتت قبلها رقية، وام كلثوم، ومات عبد الله، والقاسم...

سبحانه ، جلّت قدرته وعظمته آياته ، ووسعتْ رحمتُه عبده المصطفى ، كما وسعتْ من قبله ، عبديه ابراهيم وزكريا :

قال تعالى :

« هل أتاك حديثُ ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجلٍ سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صَرَّة فصكَّتْ وجهَهَا وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلِك قال ربُّك ، إنه هو الحكيم العليم » [1] .

ومن آياته تعالى في زكريا والبشرى : « قال ربِّ أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكِبَر عِتِيا * قال كذلكَ قال ربك هو عليَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا » [2]

لكن « مارية » لم تكن عجوزا ، كما لم يكن ﷺ عقيما قد بلغ من الكِبَر عِتِيًّا !

وفاض عالمها المشترك بالهناءة والغبطة .

وسرعان ما سرتْ البشرى في انحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارئ حاجة إلى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبي .

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها في المدينة سوى عام واحد ، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل؟...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ، وفيهن بنتا أبي بكر وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبي طالب ، محرومات لا يلدن؟

---

(١) سورة الذاريات : الآيات : ٢٤ — ٣٠ .

(٢) سورة مريم : الآيتان : ٨ ، ٩ .

وخاف الرسول على «مارية» فنقلها الى «العالية» بضواحي المدينة، توفيرا لراحتها وسلامتها، وعناية بصحتها وصحة جنينها.

وسهر عليها يرعاها، وكذلك فعلت اختها «سيرين» حتى بلغ الجنين أجله، وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة.

ودعا الرسول قابلتها «سلمى: زوج ابي رافع» ثم انتحى ناحية من الدار، يصلي ويدعو...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى [1] أكرمها كل الاكرام، وخف الى مارية فهنأها بولدها الذي أعتقها من الرق [2]، ثم حمل وليده بين يديه مستثار الفرح والحب، وسماه «ابراهيم» تيمنا باسم جد الأنبياء.

وتصدق ﷺ على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ورقا، وتنافست الأنصار فيمن يرضعه، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبي ﷺ لما يعلمون من هواه فيها، فاختار مرضع ولده، وجعل في حيازتها سبعا من الماعز كي ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها [3].

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم، ويجد فيه انسه ومسرته، ويود لو شاركته دنياه كلها في هذا الأنس.

حمله يوما بين ذراعيه إلى «عائشة» ودعاها في تلطف وبشر، لترى ما في الصغير من ملامح أبيه، فأحست «عائشة» كأن سهما نفذ الى قلبها، وكادت تبكي مما تجد، لكنها أمسكت عبرتها وقالت في غيظ:

---

(١) وفي رواية ان الذي حمل البشرى الى الرسول أبو رافع زوج سلمى. السمط: ١٤٠ - وانظر الاستيعاب: ١/٥٤.

(٢) السمط الثمين: ١٤٢ وانظر الاستيعاب: ٤/١٩١٣.

(٣) الاصابة لابن حجر: جـ ١ - والاستيعاب: ١/٥٥.

وفي رواية أنه ﷺ، حلق رأس ولده يوم سابعه، وتصدق بزنة شعره فضة، وذبح كبشين «وفاء الوفاء: ١/٣١٦».

— ما أرى بينك وبينه شبها!

وأدرك الرسول على الفور مدى ما تكابد، فانصرف بولده وهو يرثي لعائشة...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمداراة، حتى كان اليوم الذي اجتمع فيه الرسول بمارية في بيت «حفصة» فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا، وكان ما كان من قصة التحريم.

وخُيل لمارية انها بلغت مناها، فهذه هي تلد للنبي ولدا كما ولدت «هاجر» لابراهيم ابنه اسماعيل.

وهذه هي محنة الغيرة تنتهي على خير لها.

ولم يسعد «مارية» شيء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام على اليأس غلاما تقر به عينه، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضي الله عنها.

* * *

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبي ﷺ:

في (الإصابة) من طريق عَمرة، بنت عبد الرحمن، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ما غِرتُ على امرأة إلا دون ما غِرْتُ على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أولَ ما قدم بها في بيتٍ لحارثة بن النعمان، الأنصاري، فكانت جارتنا فكان عامة الليل والنهار عندها... فجزعتُ فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا» زادت في رواية: «ثم رزقها الله الولدَ وحُرِمناه منه».

على أن غيرة أمهات المؤمنين، رضي الله عنهن، لم تنلْ من «مارية» ما نالته شائعة سوءٍ أرجف بها مرجفون من أهل المدينة، واتهموها إفكا وبهتانا بالعبد «ما بور» الذي

جاء معها من مصر في هدية المقوقس «وكان يأوي إليها لخدمتها ويأتيها بالحطب والماء. فقال ناس، لا يتقون الله، علج يدخل على علجة».

ولم يتخل الله تعالى عنها في محنتها، بل أتاح لها دليلا قاطعا على براءتها من الإفك: في حديث أنس رضي الله عنه؛ أن رجلا كان يتهم بأمِّ ولد رسول الله ﷺ، فقال لعلي: «اذهب فاضربْ عنقه» فإذا هو في ركيٍّ – بئر– يتبرد فيها. فقال له علي: اخرجْ. فناوله يده فأخرجه – عاريا – فإذا هو مجبوب... فكفَّ عليٌّ عنه ثم أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه لمجبوب...» الحديث[1].

---

(١) رواه ثابت البناني عن أنس، وأخرجه مسلم في صحيحه من طريق زهير بن حرب، في باب (براءة حرم النبي ﷺ من الريبة) ٢١٣٩/٤، ح (٢٧٧١) وأخرجه ابن عبد البر في ترجمتها بالاستيعاب، بسنده إلى زهير بن حرب.

الهلال الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير...

مرض «ابراهيم» ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت إليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ، لكن الحياة أخذت تنطفئ فيه رويدا رويدا... فجاء أبوه معتمدا على يد «عبد الرحمن بن عوف» لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه في حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لا يملك الا أن يقول في أسى وتسليم :

«إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئا» ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ويسمع حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة...

وانحنى على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه فقال :

«يا إبراهيم ، لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأوّلنا ، لحزنّا عليك حزنا هو أشد من هذا . وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . «تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب»[1] .

ثم نظر إلى مارية في عطف ورثاء ، وقال يواسيها : «إن ابراهيم ابني ، وإنه مات في الثدي ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»[2] .

وأقبل ابن عمه ﷺ «الفضل بن عباس» فغسّل الصغير الميت ، وأبوه الرسول جالس يرنو اليه في حزن بالغ .

---

(١) الاستيعاب : ٥٦/١ – والنقل فيه – والإصابة : ابراهيم بن محمد عليه السلام . والسمط الثمين ١٤٣ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل : ١٨٠٨/٤ (ح ٢٣١٦).

وفي رواية أنه مات في بني مازن عند ظئره أم بردة خولة بنت المنذر بن زيد. وغسَّلته وحُمل من بيتها على سرير صغير وصلى عليه أبوه، عليه الصلاة والسلام وكبَّر اربعًا. ثم سار وراءه إلى البقيع، وأضجعه بيده في قبره، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء (١).

وآب المشيعون الى «المدينة» واجمين، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس، فقال قائلهم: «انها انكسفت لموت ابراهيم».

وبلغت الكلمة مسمع النبي ﷺ، فالتفت إلى أصحابه يقول:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته...» (٢).

وطوى جرحه في قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه، واعتكفت «مارية» في بيتها تحاول ان تتجمل بالصبر حتى لا تنكأ الجرح في قلب السيد الرسول، فاذا عز الصبر خرجت الى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها، والتمست راحة في البكاء.

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت «ابراهيم» في السنة العاشرة للهجرة، فما أهل ربيع الاول من السنة التالية حتى شكا ﷺ، ثم لحق بربه الأعلى، وترك «مارية» من بعده تعيش خمس سنوات في عزلة عن الناس، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين، ولا تكاد تخرج إلا لكي تزور قبر الحبيب بالمسجد، أو قبر ولدها بالبقيع.

فلما ماتت سنة ست عشرة من الهجرة «أخذ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحشد

---

(١) عيون الأثر ٢٩١/٢ — والنقل منها — والاستيعاب من طريق الواقدي ٥٦/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه من عدة طرق. منها حديث جابر بن عبد الله، (٦١٣/٢).

الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع »[1] .

وكل نفس ذائقة الموت ، فحسب « مارية » أنها دخلت في حياة النبي ﷺ ، وان الله آثرها بفخر أمومتها لابراهيم عليه السلام .

(١) الاستيعاب والإصابة : مارية .

وصية من النبي صلى الله عليه وسلم

ثم حسبها بعد هذا كله ، أن دعمت ما بين مصر والجزيرة العربية من صلة عريقة بدأت بهاجر من أعماق الماضي الموغل في القدم ، فجعلت سيدنا خاتم النبيين يوصي بقوم مارية فيقول .

« اللهَ الله ! في أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » .

وأخرج مسلم في (باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر) حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر... فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما » أو قال : « فإن لهم ذمة وصهرا... » الحديث [١] .

ولقد ترك ﷺ هذه الوصية ميراثا بعده ، فيقال إن الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما طلب إلى معاوية في مفاوضات الصلح بينهما ، أن يرفع الخراج عن أهل قرية « حفن » وفيها خئولة ابراهيم عليه السلام [٢] .

كما يقال إن « عبادة بن الصامت » لما جاء مصر بعد فتحها ، بحث عن تلك القرية وسأل عن موضع بيت مارية ، فبنى به مسجدا...

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ١٩٧٠/٤ : ح (٢٥٤٣) والاستيعاب ٥٩/١ .

(٢) بلدان ياقوت : حفن (٣٠٢/٣).

(١٢)

ميمونة بنت الحارث

آخر أمهات المؤمنين

«ذهبت والله ميمونة... أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم».

عائشة بنت أبي بكر

الإصابة: ١٩٢/٨

أمنية قلب

لم يكن هنالك شيء يشغل المسلمين بعد فتح «خيبر» وعودة المهاجرين إلى الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه «عهد الحديبية» الذي عقد آخر سنة ست ، من أن «يعود محمد وأصحابه إلى مكة في العام الذي يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها ، ولا شيء غيرها».

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى «أم القرى» ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا عيونهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد .

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذي جُعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون اليه من كل فج عميق .

فلما سمعوا اليه في العام السادس للهجرة حاجين مسالمين وصاروا من «مكة» قاب قوسين أو أدنى ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وإن قبلوا أخيرا أن يتركوا المسلمين يعودون إليه في قابل ...

* * *

ومرت الأيام بطيئة والليالي طويلات ، حتى استدار العام ونادى النبي ﷺ في الناس كي يتجهزوا للخروج إلى مكة .

وركب ناقته «القصواء» وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار يتلهفون شوقا إلى أقدم بيت عُبِد الله فيه ، وحرصا على السعي إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم .

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مهد النبي الهاشمي ومهبط الوحي .

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم باليوم الموعود، وأمامهم «عبد الله بن رواحة» آخذا بخطام «القصواء» ينشد حاديا : (١)

خلُّوا بني الكفارِ عن سبيلهْ
خلُّوا، فكلُّ الخير في رسوله

...

يا رب إني مؤمن بقيله
أعرف حقَّ الله في قبوله

حتى دخلوا مكة، آمنين محلقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد.

وصدق الوعد الحق :

«لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلنّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنين مُحَلِّقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا» (٢)

وهتفوا في صوت واحد ملبين :

«لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك».

فتجاوبت أرجاء «مكة» بالهتاف المؤمن، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

(١) ابن اسحاق في السيرة : ١٣/٤، وابن سعد في الطبقات (٨٨/٢).

(٢) آية ٢٧ سورة الفتح.

«لا إله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده».

فما بقي مكي إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الاكبر للمؤمنين جد قريب...

وفعل المشهد المهيب في مكة فعل السحر...

فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة يهفو قلبها إلى «محمد» ﷺ.

تلك كانت «برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية» إحدى «الأخوات المؤمنات».

شقيقتها «أم الفضل ، لبابة الكبرى بنت الحارث» زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه ، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام ، والسيدة التي يذكر لها الإسلام أنها ضربت أبا لهب عدو الله ورسوله ، حين دخل بيت أخيه العباس فاحتمل مولاه «أبا رافع» فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه لانه أسلم. فقامت أم الفضل الى عمود هناك ، فشجّت رأس أبي لهب شجة منكرة وهي تقول :

«استضعفتَه أن غاب عنه سيده؟؟» فقام مولّياً ذليلا ، فما عاش الا سبع ليال حتى رماه الله بداء قتله [١].

وأخوات برة لأمها :

«زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية» أم المؤمنين وأم المساكين. و«أسماء بنت عميس الخثعمية» زوج جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الامام علي بن أبي طالب فولدت له يحيى ، رضي الله عنهم».

و«سلمى بنت عميس» زوج حمزة بن أبي طالب ، أسد الله وشهيد أحد وأم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٣٠١/٢.

بنته «أمامة» التي زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام ربيبه سلمة.

وأمهن جميعا، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث، التي كان يقال فيها: «أكرم عجوز في الارض أصهارا هند بنت عوف: أصهارها، رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضي الله عنهما، وجعفر وعلي ابنا أبي طالب رضي الله عنهما».

وكان لهند غير هؤلاء، أصهار آخرون من ذوي المكانة: الوليد بن المغيرة المخزومي، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث، أم خالد، وأبيّ بن خلف الجمحي، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث، أم أبان، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالي، زوج عزة بنت الحارث.

ولبابة، وعصماء، وعزة، بنات الحارث، شقيقات لبرة... [1].

كانت «برة» إذ ذاك أرملة في السادسة والعشرين من عمرها، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامري [2].

وأفضت «برة» إلى شقيقتها «أم الفضل» بما يهفو اليه قلبها، فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس، وجعلت له يدها.

ولم يتردد «العباس» في حمل رسالة كهذه إلى النبي ﷺ، بل مضى من فوره إلى ابن أخيه، فخاطبه في أمر «برة» وعرض عليه أن يتزوجها، واستجاب المصطفى، وأصدقها أربعمائة درهم، وبعث ابن عمه جعفر – زوج أختها أسماء – يخطبها، وأنكحه إياها، وليّاً عنها، عمه العباس.

وفي رواية أن «برة بنت الحارث» هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، فأنزل الله

---

(١) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث): السيرة ١٩٦/٤، والمحبر ١٠٧، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢ وعيون الأثر ٣٠٨/٢ والسمط الثمين ١١٣.

(٢) هذه رواية ابن اسحاق في السيرة ١٩٦/٤ – والاستيعاب. وفي اسم الزوج خلاف – راجع تاريخ الطبري: ١٧٨/٣ – والاستيعاب والإصابة والسمط الثمين ١١٥.

تبارك وتعالى فيها : «وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحَها خالصة لك من دون المؤمنين» [1] .

قال السهيلي : «لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير، رمت بنفسها من على البعير وقالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ» .

* * *

وكانت الايام الثلاثة التي نص عليها عهد الحديبية [2] ، قد قاربت نهايتها ، فود المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الامهال مزيدا من الوقت ، يمكن للإسلام من هؤلاء الذين لا يزالون يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا . . .

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج ، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه في العهد ، قال مسالما :

«ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ ! »

لكن رسولي قريش ، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة ، إذا امتد مقامه بها أياما أخريات .

وأجابا في جفاء : «لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا» [3] .

فنزل على كلمتها وفاء بعهده ، وأذّن في المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه «أبا رافع» بمكة ، ليلحق به في صحبة «برة» .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤ . والإصابة ١٩٢/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٩/٢ . كلهم عن الزهري والآية من سورة الاحزاب ، رقم ١١٥ .

(٢) نص العهد على أن يرجع الرسول وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ ، السنة السادسة هـ ، ثم يدخلها بأصحابه في عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة ايام – راجع نص العهد في تاريخ الطبري ٧٩/٣ وطبقات ابن سعد : ٧٠/٢ .

(٣) السيرة : ١٤/٤ وطبقات ابن سعد ٨٨/٢ وتاريخ الطبري : ١٠٠/٣ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ١٤٨/٢ .

البقعة المباركة

وفي «سرف» قرب التنعيم، على بريد من مكة، جاءت «برة» يصحبها مولى النبي عليه الصلاة والسلام...

فبنى بها ﷺ في شوال من سنة سبع، ثم انصرف بها راجعا إلى «المدينة».

وسماها «ميمونة» أن كان زواجه بها في المناسبة الميمونة الغراء، التي دخل فيها أم القرى، لأول مرة من سبع سنين، ومعه صحابته آمنين لا يخافون...

ودخلت «ميمونة» بيت النبي مسالمة، قد اكتفت من دنياها بما منّ الله عليها به من نعمة الإسلام، وشرف الزواج بالنبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

وما من ريب في أن الغيرة أخذتها من «عائشة» ثم من «مارية»: أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبي عليه الصلاة والسلام، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم.

وما من ريب كذلك في أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة، حين جمحت الغيرة بنساء الرسول، وهي منهن، فكانت المغاضبة والهجر.

لكن مؤرخي الإسلام وكتاب السيرة، لا يذكرون لها، فيما عدا ذلك، حادثة خصومة انفردت بها، أو شجار شبّته في البيت المحمدي.

وإنما صح في الحديث أنه ﷺ كان في بيتها حين اشتد به الوجع في مرض الموت، فرضيت أن ينتقل ليُمرضَ حيث أحب، في بيت عائشة.

---

(١) السيرة: ٤/١٤ – وتاريخ الطبري: ٣/١٠١ – والاستيعاب: ٤/١٩١٨ ووفاء الوفا للسمهودي: ١/٣١٦.

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى ، عاشت «ميمونة» تذكر اليوم الميمون الذي جمعها بخير البشر ، وتحن إلى البقعة المباركة في «سرف» حيث بنى بها...

وقد أوصت ان تدفن في موضع قبتها هناك ، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين ، على الأرجح صلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس ، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها. حتى أرقدوها حيث أحبت... (١)

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة...

حدث «يزيد بن الأصم» :

«تلقيت عائشة من مكة ، أنا وابنٌ لطلحةَ من أختها ، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه... فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت علي فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت : أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك في بيت من بيوت نبيه؟... ذهبت والله ميمونة ، ورُمي بحبلك على غاربك . أما أنها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم» (٢) .

ولأمّ المؤمنين ميمونة ستة وأربعون حديثا عن الأئمة الستة . روى عنها عبد الله بن عباس ويزيد بن الأصم وجماعة من التابعين.

سلام على ميمونة...

وسلام على نساء النبي ﷺ ، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

* * *

---

(١) لاخلاف في مدفنها في موضع قبتها بسرق ، لكنهم اختلفوا في تاريخ وفاتها . نقل ابن سعد عن الواقدي أنها ماتت سنة إحدى وستين. وقال ابن عبد البر: سنة إحدى وخمسين ، وقال ابن حجر : هو الأثبت . وتعقب قول الواقدي فوهمه فيه مستدلا بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضي الله عنها . ولم يذكر ابن سيد الناس في وفاتها غير سنة إحدى وخمسين ، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٢/٣٠٩).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات بسنده إلى يزيد. وحكاه ابن حجر عنه.

طبعات المصادر والمراجع

	ط
«صحيح البخاري»	الطبعة الأولى الشرفية بمصر ١٣٠٤ هـ
«صحيح مسلم»	الحلبي: ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥م
«اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»	الحلبي ١٣٦٨ — ١٩٤٩
السيرة النبوية، رواية ابن هشام	الحلبي ١٩٣٦
كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد	بريل، ليدن ١٣٢٥
الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبن عمر بن عبد البر	نهضة مصر بالفجالة ١٩٤٧
الروض الأنف، لأبي القاسم السهيلي	الأزهرية، عن طبعة المولى حفيظ العلوي.
الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، شهاب الدين العسلاني	الشرفية بالقاهرة ١٣٢٥ — ١٩٠٧
عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس، أبي الفتح اليعمري	ط ثانية، بيروت ١٩٧٤م
المحبر، لأبي جعفر محمد بن حبيب	بيروت، عن الآصفية ١٣٦١ هـ

تاريخ الأمم والملوك ، للطبري	الحسينية بالقاهرة
أبي جعفر محمد بن جرير	
نسب قريش ، للمصعب الزبيري	أولى ، ذخائر
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم	أولى ، ذخائر
العقد الثمين ، في مناقب أمهات المؤمنين	حلب
للمحب الطبري .	
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	السعادة بالقاهرة
للسمهودي نور الدين	١٣٧٤ — ١٩٥٥
تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني	حيدر اباد ١٣٢٧ هـ
خلاصة تذهيب الكمال ، لصفي الدين الخزرجي	الخيرية ١٣٢٢ هـ
جامع البيان في تفسير القرآن	أولى ، بولاق
لابن جرير الطبري	١٣٢٩ هـ
تفسير الكشاف ، لأبي القاسم الزمخشري	أولى ، التجارية ١٣٥٤ هـ
البحر المحيط لابن حيان الأندلسي المصري	أولى ، السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ
النهاية في غريب الحديث والأثر	الخيرية بالقاهرة
لابن الأثير الجزري	

فهرس موضوعي

صفحة

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب سردًا تقليديًا لما في كتب السلف عن تراجم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. ولكنه عرض لشخصياتهن في بيت النبوة وسيرتهن فيه، بقدر ما هو تاريخ لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في بيته، بشرًا رسولا.

تقدمه الباحثة الإسلامية الجادة، الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ، مستخلصًا من أصول المصادر والمراجع للسيرة وتاريخ عصر البعث وطبقات الصحابة، بالمعهود في أستاذتنا الفاضلة، من أمانة وتقوى وصحة المنهج وصبر على تكاليفه، وتقدير لجلال الموضوع وحرمة الكلمة، على رجاء أن تسد فراغًا بمكتبتنا الإسلامية، في هذا الجانب المائز من السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية.

الناشر



الثمن : ٧ ل. ل.